سبيل الله

"قل هذه سبيلي أدعو إلى الله
على بصيرة أنا ومن اتبعني"

صدق الله العظيم

من خصائص ومناقب
سيدنا رسول الله



تأليف

بدوي طه علام

سبيل الله

"قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني"

صدق الله العظيم

من خصائص ومناقب سيدنا رسول الله



تأليف

بدوي طه علام

أعيروا كتابي لفتة وتأملوا محاسن ما يحويه من دقة الصنع

أبحتكموا وردًا لنهل رحيقه ولكن حقوق الطبع تحفظ بالطبع

مطبعة الكيلاني

المدير المسئول رشاد كامل كيلاني

٢٢ شارع غيط العدة - باب الخلق

ت ٩١٨٥٩٨

فهرس الكتاب

رقم الصفحة

ا كلمة التصدير

ب استهلال

د الإهـــداء

ى مقـــدمة

١ الباعث على نشر هذه الرسالة

٣ يجب علينا أن نتجنب كل ما قاله المتأخرون عن طريق الفكر والاستنتاج

٥ دور الشعر فى المديح

١٥ كتب الكلبى النبى صلى الله عليه وسلم خمسمائة أم ، كلهن من نكاح كنكاح الإسلام

٢٥ البشارة به صلى الله عليه وسلم

٤١ مولده صلى الله عليه وسلم

٤٢ رضاعه صلى الله عليه وسلم

٤٣ حياته الأولى صلى الله عليه وسلم

٤٥ جهاده وصبره صلى الله عليه وسلم

٤٥ هجرته صلى الله عليه وسلم

٤٨ واجبنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

٦٢ وجوب محبته صلى الله عليه وسلم

٦٦ وجوب طاعته صلى الله عليه وسلم

٦٨ وجوب نصرته صلى الله عليه وسلم

٦٩ ما اختص الله به رسوله صلى الله عليه وسلم

٧٨ سيدنا محمد : الربانى ، صلى الله عليه وسلم

٨٩ جملة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم

رقم الصفحة

٩١ حلمه صلى الله عليه وسلم
٩٨ صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم
١٠٢ زهده صلى الله عليه وسلم
١٠٥ جوده وسخاؤه صلى الله عليه وسلم
١١٠ تواضعه صلى الله عليه وسلم
١١٤ شفقته صلى الله عليه وسلم
١١٩ شجاعته صلى الله عليه وسلم
١٢٢ حياؤه صلى الله عليه وسلم
١٢٤ حفظ الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم
١٤٠ سيدنا محمد : الداعى صلى الله عليه وسلم
١٤١ فصاحته صلى الله عليه وسلم
١٦٠ مُعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم
١٦٩ سرعة إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم
١٧٠ تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم
١٧٠ تكثير الماء ببركته صلى الله عليه وسلم
١٧١ شكوى البهائم إليه صلى الله عليه وسلم
١٧١ نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم
١٧٣ إخباره صلى الله عليه وسلم بالمغيّبات
١٧٦ الخاتمـــة
١٧٦ ما قالته « حليمة » السعدية رضى الله عنها فى حبه ﷺ
١٧٩ قول بعض الأفاضل فى مدح أهل البيت الكرام رضى الله عنهم
١٨٠ بعض مناقبه صلى الله عليه وسلم
١٨٤ بعض ما قاله « البوصيرى » رحمه الله تعالى ورضى عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كلمة التصدير ﴾

الحمْدُ للهِ وَحْدَهُ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى أَشرفِ الخَلْقِ وسَيِّد البَشَر ، وخاتَم النَّبِيِّين ، وأَفْضلِ الرُّسُل : سَيِّدنا مُحمَّدٍ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ، وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ .

وبعد : فإنى أُقدِّم هذا الكتاب الصغير فى حجمه ، الكبير فى معناه ونفعه ، وقد توَّجتُه ببعض خصائص ومَناقِب سيدنا رسول الله :

[مُحَمَّدٍ]

صَلَّى اللهُ تبارَكَ وتعالَى عَلَيْهِ ـ وآلِهِ وصَحْبِهِ ـ وَسَلَّمَ

وقد اقتصرتُ فيه على أن أجمع ما هو واجب معرفته لدى إخوانى المسلمين ، موجزاً ما تيسر جمعه ، لعلمى بمشاغل المسلم فى هذا العصر الحديث ، الذى اقتطع من الناس أكثر سنوات حياتهم ، وهم يُكافحون من أجل التزاماتهم المعيشية .

وأسأله تبارك وتعالى أن يجعله نافعاً ،
وأن يهدى هذه الأمة الكريمة سواء السبيل :
إنه على كل شىء قدير .

المؤلف

بدوى طه علام

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

سَيِّدِي يا رَسُولَ اللهِ ، يا مَنْ أَنْتَ فِي السَّماءِ مَحْمُودٌ ،
صَلَّى اللهُ تبارَكَ وَتعالَى عَلَيْكَ ـ وَآلِكَ وَصَحْبِكَ ـ وَسَلَّمَ ..
وَفِي الأَرْضِ « مُحَمَّدٌ » ، وَفِي الْجَنَّةِ « أَحْمَدُ » ،
وَفِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مُمَجَّدٌ ، وَفِي الْمُرْسَلِينَ رَسُولٌ . .
وَفِي الْمُذْنِبِينَ شَفَّعَكَ اللهُ ، يا رَسُولَ اللهِ !..
يا مَنْ ظَلَّلَتْهُ فِي الْهَجِيرِ غَمامَةٌ ،
وَمَشَى عَلَى الرَّمْلِ ما بانَتْ لَهُ عَلامَةٌ ،
وَفِي الصَّخْرِ الأَصَمِّ غاصَتْ أَقْدامُهُ ،
وَهُوَ الشَّفِيعُ فِي الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيامَةِ !..
يا رَسُولَ اللهِ : يا مَنْ بِالْمَقامِ الْمَحْمُودِ ، وَاللِّواءِ الْمَعْقُودِ ،
وَالْحَوْضِ الْمَوْرُودِ ، وَالْجَنَّةِ وَالْخُلُودِ ،
وَالشَّفاعَةِ الْعُظْمَى فِي الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ، وَعَدَكَ اللهُ .
يا مَنْ أَرْضَعَتْهُ « حَلِيمَةُ » فِي الصِّغَرِ ،
وَظَلَّلَتْهُ الْغَمامَةُ فِي السَّفَرِ ،
وَأَكْرَمَهُ مَوْلاهُ وَانْشَقَّ لَهُ الْقَمَرُ ،
وَهُوَ الرَّسُولُ الْمَبْعُوثُ مِنْ « مُضَرَ » ،
وَلَهُ الدَّرَجَةُ الرَّفِيعَةُ عِنْدَ اللهِ .

يا مَنْ إذا مَشَى يَسْبِقُهُ النُّورُ ، وَإذا تَبَسَّمَ أَخْجَلَ الْبُدُورَ ،

وَلِرُؤْيَتِهِ تَفَتَّحَ الْوَرْدُ وَأَيْنعَتِ الزُّهُورُ ،

وَفِي الْمَلإِ الأَعْلَى عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى !..

قَبَّلَ الْبَعِيرُ قَدَمَيْكَ ، وَالْغَزالَةُ سَلَّمَتْ عَلَيْكَ ،

وَالْعَنْكَبُوتُ ـ فِي الْغارِ ـ خَيَّمَ عَلَيْكَ ،

والْحَجَرُ الأَصَمُّ لانَ تَحْتَ قَدَمَيْكَ ،

يا سَيِّدِي وَسَنَدِي ، وَذُخْرِي وَذَخِيرَتِي ،

وَعُمْدَتِي واعْتِمادِي يا رَسُولَ اللهِ .

* * *

أَلَا يا رَسُولَ اللهِ : يا أَشْرَفَ الْوَرَى

وَيا مَنْ رَمَى الأَعْدا بِبِيضِ الْبَواتِرِ

لَكَ الْمَدْحُ فِي الأَعْرافِ والطُّورِ والنِّسا

وَفِي لَمْ يَكُنْ والذّارِياتِ وغافِرِ

يَقُولُونَ لِي : والنَّجْمِ شَمْسُ الضُّحَى بَدَتْ

بِأَنْوارِ طَـهَ قُلْتُ : سُبْحانَ فاطِرِ

المحبُّ الولهان

بدوى طه علام

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

الإهداء

إِلَى سَيِّدِنا وَمَوْلانا : رَسُولِ اللهِ

صَلَّى اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى عَلَيْهِ ـ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ ـ وَسَلَّمَ ..

هٰذِهِ الرِّسالَةَ : اسْتَمْلَيْتُها سَيِّدِي : يا رَسُولَ اللهِ ،

من خُلُقِك العظيم الطاهر ، وشمائلك اللطيفة السامية ،

وخصائصك النادرة العالية . .

فمن تتبعها بالفهم والتقدير ، كان من المخلصين المؤمنين المتقين ،

الذين يتمتعون بسعادة النفس ، ويحظون بنعيم الروح !..

طَلَعْتَ سَيِّدِي : يا رَسُولَ اللهِ ،

صَلَّى اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى عَلَيْكَ

ـ وَآلِكَ وَصَحْبِكَ ـ وَسَلَّمَ

فى سماء الوجود ، فكنتَ نورَه وسَناه ، وجئتَ إليه

ـ وقد جحد ـ فكنتَ قلبه وهُداه !..

سَيِّدِي : يا رَسُولَ اللهِ ،

صَلَّى اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى عَلَيْكَ ـ وَآلِكَ وَصَحْبِكَ ـ وَسَلَّمَ ..

لقد سمَّاك جدُّك عبد المطلب : محمداً ،

رجاء أن تُحْمَدَ فى الأرض والسماء !..

وقد حقق اللهُ تبارك وتعالى هذا الرجاء ،

واصطفاك من أشرف القبائل ، وأكرم العشائر حسباً ونسباً !..

ويكفيك ـ يا سيدى ـ أنك أحبُّ المخلوقات إلى الله !..

سَيِّدِي : يا رَسُولَ اللهِ ،

صَلَّى اللهُ تَبارَكَ وَتعالَى عَلَيْكَ ـ وآلِكَ وصَحْبِكَ ـ وَسَلَّمَ ..

ما عرفنا أجمــل ولا أحسن منك ، كاملا مكملا ، لا يُدانيك فى كمالك رسول ، كما لا يُجاريك فى سائر صِفاتك إنسان ، لا سيما فى سكينتك الباعثة على الهيبة والوقار ، وطلاقة وجهك المُوجِبَة للمودّة والإخلاص ، وحُسن القبول الخالِب ما نفر من القلوب ، ورجاحة عقلك ، وصِحّة رأيك ، وصدق فِراستك ، وتأييدك بالوحى والقرآن !..

سَيِّدِي : يا رَسُولَ اللهِ ،

صَلَّى اللهُ تَبارَكَ وَتعالَى عَلَيْكَ ـ وآلِكَ وصَحْبِكَ ـ وَسَلَّمَ ..

قد بعثك الله تبارك وتعالى إلينا ـ أى للناس جميعا ـ وأرسلك بشريعتك السمحاء الخاتمــة ، محبة منه سبحانه وتعالى لعباده ، ورعاية وفضلا ورحمة ، وهذه هى النعمة الكبرى ، والفوز والفلاح ، والسعادة العظمى . وإن الفوز بهما لا يحصُل إلا بمتابعتك يا خاتم النبيين ، وسيد الأولين والآخرين ، فى الأقوال والأفعال والأخلاق ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

سَيِّدِي : يا رَسُولَ اللهِ :

صَلَّى اللهُ تَبارَكَ وَتعالَى عَلَيْكَ ـ وَآلِكَ وَصَحْبِكَ ـ وَسَلَّم ..

لِشدة ما كان ثباتك فى الشدائد ، وصبرك على البأساء والنوائب ، وزهدك فى الدنيا ، فما مِلْتَ إلى غضارتها ، ولا جنحت لحلاوتها ، حتى انتصر حَقُّك على باطلهم ، فمنهم من صــدّق ، ومنهم من كفر وحقّت عليه الضلالة ، ومنهم من ظلوا فى غَيِّهم يَعْمهون !..

سَيِّدِي : يا رَسُولَ اللهِ :

صَلَّى اللهُ تبارَكَ وَتعالَى عَلَيْكَ ـ وَآلِكَ وَصَحْبِكَ ـ وَسلَّمَ ..

ما أكثر تواضُعَك وخَفْض جناحِك لأصحابك ، وحِلمك وأدبك ، وحِفظك للعهد ، ووفاءك بالوعد ؛ إذ كنت ترى البُغض من أكبر الذنوب ، والإخلاف من أشـد العيوب ؛ ومع ذلك فأنت نبيُّ « المَلْحَمة » حيث قلت يا سيد الأكوان ، وخير موجود من آل عدنان :

« جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي !..
وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالْهَوانُ عَلَى مَنْ خالَفَ أَمْرِي . »

سَيِّـدِي : يا رَسُولَ اللهِ :

صَلَّى اللهُ تبارَكَ وَتعالَى عَلَيْكَ ـ وَآلِكَ وَصَحْبِكَ ـ وَسَلَّم ..

ما أعظم حكمتك البالغة ، وعلومك الباهرة ، وحفظك لما أطلعك الله عليه من أخبار النبيين ، وأنباء العالم فى الزمن الغابر والحاضر ، فلم يترك ـ سبحانه ـ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها لفكرك الثاقب ، وذِهنك الوقّاد ، مما ينفع الناس فى دينهم : دنيا وأخرى !..

سَيِّـدِي : يا رَسُولَ اللهِ :

صَلَّى اللهُ تبارَكَ وَتعالَى عَلَيْكَ ـ وَآلِكَ وَصَحْبِكَ ـ وَسَلَّمَ ..

لقد أحرزت جوامِـعَ الكَلِم بأحكامك [أحكام شرعك الأقوم] بأظهر دليل وأوضح برهان ، وجمعك محاسن الأخلاق ؛ فكنت تصِلُ الأرحام ، وتعطف على الضعفاء ، ولا تَوَدُّ التباغض والتحاسد والتقاطع والتباعد ، وحُفِظَ لِسانُك الشريف من التحريف فى القول ، وفصاحتك العربية معروفة على مدى الأجيال ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

أنت أفصح الناطقين لسانًا ، وأوضحهم بيــانًا ، وأوجزهم كلامًا ، وأجزلهم لفظًا ، فلم يظهر فى كلامك حُجْنة التكلف ، ولا فَيْهقة التعسف ! . .

سَيِّدِى : يا رَسُولَ ٱللهِ :

صَلَّى ٱللهُ تبارَكَ وَتعالَى عَلَيْكَ ـ وَآلِكَ وَصَحْبِكَ ـ وَسَلَّمَ ..

لقد أُرْسِلت لإقامة مَعالم الدين ، ومناهج الأحكام ؛ حتى أوضحتَ لِأمتك العبادات ، وبيّنت ما يحلّ وما يحرُم من المُباحات والمحذورات وفصّلت الجائز والممتنع من المواريث والمعــاملات ، وانتصبت لجهاد الكفار والأشرار ، وقد أحاطوا بجهاتك ، وأحدقوا بِجَنَباتك ؛ فلم تخش شيئًا إلا الله ، وذلك بما خُصِصت به من الشجاعة والبسالة وتأييد الله تبارك وتعالى ! . .

سَيِّدِى : يا رَسُولَ ٱللهِ :

صَلَّى ٱللهُ تبارَكَ وَتعالَى عَلَيْكَ ـ وَآلِكَ وَصَحْبِكَ ـ وَسَلَّمَ ..

يُؤسفنى ويَحزُننى أن الكثير من المسلمين لا يحفظون نسبَك الشريف وأسماء ذُرّيتك الطاهرة ، إلا بأقلّ القليل ، وكذلك أكثر الطلبة والطالبات فى مدارسنا لا يعرفون غزواتك صلى الله تبارك وتعالى عليك وآلك وصحبك وسلم ! . مع أن صبيان المكاتب « الكتاتيب » فى أروقة الأزهر ، وكذلك المدارس الأولية ، كانوا يعرفون ذلك ، ويستظهرونه عن ظهر قلب فى القديم القريب ، بل وصل تملّق أحد المحبين لكم ولذريتكم الطاهرة أن يُضمِّن أسماء هؤلاء الأشراف الطاهرين ـ مع ترتيب وِلادتهم ـ فيقول :

بِـ « الْقاسِمِ » بْنِ « الْمُصْطَفَى » و بِـ « زَيْنَبِ »
و « رُقَيَّةٍ » : هَبْ لِي الْقَبُولَ و « فاطِمَهْ »
وبِـ « أُمِّ كُلْثُومٍ » و « عَبْدِ اللهِ » : جُدْ
وَقِنِي بِـ « إِبْراهِيمَ » شَرَّ الْحاطِمَهْ ! .

سَيِّدِي : يا رَسُولَ اللهِ :

صَلَّى اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى عَلَيْكَ ـ وآلِكَ وصَحْبِكَ ـ وسَلَّمَ .

ظهرتَ فى الحياة ، فكنت نورها وسناها . واصطفاك الله لتكو
رحمة للحياة بمن فيها ، فكنت السعادة لها ، وبك رُحْمَاها !..

سَيِّدِي : يا رَسُولَ اللهِ :

صَلَّى اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى عَلَيْكَ ـ وآلِكَ وصَحْبِكَ ـ وسَلَّمَ

أوضحتَ للمسلمين ما يجب عليهم ، نحو : ربهم ونبيِّهم ودينه
وأمتهم الواحدة ، وأوطانهم المتعددة ، وأن يستسهلوا كل صعب
فى سبيل المعالى ، ويستنزلوا الأشقَّ الأبعد بتقديم المال والنفوس
الغَوالى ، من أجل الله ورسوله ودين الحق الذى ارتضاه لهم ..

فهل يا تُرى يستمعون ، وإلى دعوةِ الله : دَعْوَتِكَ يستجيبون

ماذا أقول عمّن أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، فى كلم وجيز جامع
تستمع إلى الكلمة منها ، فتراها أحرفاً معدودات ؛ فإذا استوعبتها
وجدتها تحمل من المعانى ما لا ينتهى إلى حد ، أو يقف عند غاية

وإن شئت ـ يا أخى ـ فانظر إلى هذا الذى يته
من رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسـ
إلى جواب شافٍ ، لا يَسْأَلُ عَنْهُ أحدًا فى الإسلام بعده !..

إنه سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه يقول : يارسول الله : قل لى فى الإسلام قولا ، لا أسأل عنه أحداً غيرك .

فيقول صلوات الله وسلامه عليه ، مجيباً هذا الصحابى الجليل :

« قُلْ : آمَنْتُ بِاللهِ .. ثُمَّ اسْتَقِمْ . »

والحديث فى صحيح مسلم ، وقد ذكره النووى فى باب الاستقامة

وأخيرًا ماذا أقول عن رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، الذى أخرج من الصحراء الغارقة فى الدماء ، المتأججة بالبغضاء ، المتهورة فى الجاهلية الجهلاء ، أمثالَ : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وبلالًا الحبشى ، وأبا ذر الغفارى ، وعمار بن ياسر ، وصهيباً الرومى ، ومن إليهم من أقطاب السياسة وأعلام العلم .

لا يستطيع أحد من الناس ـ وإن ملك أسباب البيان ـ أن يُحْصى شمائل النبىّ العظيم صلى الله عليه وسلم ، أو يحصر خِصاله ، أو يحدّ آثاره ! . وإذا حاول ذلك ، فإنه يكلف اللغة شططاً ، ويرهقها عُسْرًا ، وأنّى للغة أن تصل إلى تلك المرتبة الشمّاء ، وتُصَوِّرَ الشبا والنباء[1] :

كَيْفَ تَرْقَى رُقِيَّكَ الأَنْبِيَــــاءُ
يا سَماءً ما طاوَلَتْها سَـماءُ ؟ !
لَيْسَ يَدْرِي قَدْرَ الْحَبِيبِ سِوَى اللهِ
فَمـــاذا تَقُولُهُ الْفُصَحَـاءُ ؟ !

---

(١) الشبا : طرف كل شىء ومقدمه ، والجمع : الشبا والشبوات .
والنبا : النباوة ما ارتفع من الأرض .
والمقصود : عجز اللغة عن وصف علو مرتبته صلى الله عليه وسلم .

مقدمة

﴿ أثر قراءة السيرة المحمدية ﴾

لا رَيْبَ أن قِراءة السِّيرة النبوية ، والعِلمَ بما حَوَته من المعجزات وخوارق العادات ، من أقوى الأسباب لإيصال حلاوة الإيمان إلى القلوب ، وامتلاء العقول والأفئدة بتعظيمه صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه وسلم ؛ لأن تعظيمه وتوقيره ، وسيلة إلى تعظيم شريعته واحترامها والعمل بها ؛ فقد أخرج الله الناس بالإسلام من الظلمات إلى النور ؛ وأحْيا به من العرب أمة خامِدة ، وأرْضًا هامِدة !..

وهل كانت العرب إلّا فئة من جَوّالة الأعراب ، خاملة فقيرة ، تجُوب الفَلاة منذ بَدْء العالم ، لا يُسمع لها صوت ، ولا تُحسُّ منها حركة ؛ فأرسل الله إليهم محمدًا صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم بكلمة من لَدُنْهُ ، ورسالة من قِبَلِه ؛ فإذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضِّعَة رِفعة ، والضعف قوة ، والظلام نورًا ، وسع نوره الأنحاء ، وعمّ ضوؤه الأرْجاء ، وعقد شُعاعه الشمال والجنوب ، ووصل المشرق بالمغرب !..

وما هو إلّا أقلّ من قرن ـ بعد هذا الحادث ـ حتى أصبح لدولة الإسلام رِجْل فى الهند ، ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حِقَبًا عديدة ، ودُهورًا مَديدة ، بنور الفضل والنبل والمروءة ، والبأس والنجدة ، وَرَوْنَق الحقّ والهدى على المعمورة ، بإرسال سيّد الوجود (محمد) صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم .

وجاء الإسلام بدعوة دين ، ودعوة دولة ، ودعوة حياة اجتماعية ، واقتصادية وفكرية ، وَوَضع أُسس العقيدة التى يجب أن يؤمن بها أتباعه ، ورسم حُدود المعاملات بمختلف أنواعها التى تساعد على إقامة مجتمع إسلامى متميز .

وظهرت للوجود إمبراطورية إسلامية كبرى ، تمتد حتى حدود الصين وسهول سيبريا ، وأحواض أنهار فرنسا الجنوبية والغربية ، وامتزج تحت الحكم الإسلامى أفراد وشعوب كثيرة ، اختلفت لغاتها وعاداتها وتقاليدها ، ولكنها ارتضت بغلبة اللغة العربية على إنتاجها الفكرى ، فأصبح السِّمَةَ المميزة لهذه المجتمعات المتعددة استعمالُ اللغة العربية (لُغة الحكام ولُغة القرآن) . ونتج عن ذلك كله حضارة شاملة أضاءت بأنوارها العالمَ ، بخصائصه صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، التى أعطاها اللهُ له ! ..

ولا شك أن الوقوف على بعض من حقيقة خُلُقه وخصائصه ، ومنزلته صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم عند ربه ، تُوَصِّل إلى محبته ، وهى ولا شك رُوح الإيمان ، كما أن فى السَّعْى إلى معرفة أخلاقه وصفاته وخصائصه ، وذكرها وسماعها تَنَعُّمًا وتلذذًا .

فأنعم ـ أيها المسلم المؤمن ـ بمطالعة جزءٍ من سيرة نبينا صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، ومعرفة بعض ما حوته من أخلاق فاضلة وشمائل كريمة ؛ لأن الله أعطى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، كثيرًا من المِنح والمزايا ، وميَّزه على جميع الأنبياء والرُّسل ، وأعطاه القرآن هدًى ورحمة ، وجعل شريعته خاتمة للشرائع والرسالات وأيَّده بجملة من الصِّفات ؛ حتى إن العربى القُحّ ، كان يراه فيقول : (واللهِ ما هذا بوجه كذاب) ..

فكان يشهد له بالصِّدق بمجرد رؤيته !..

فكيف بمن شاهد أخلاقه ومارس أحواله فى جميع مصادره وموارده ، ورأى ما آتاه الله من الهَيْبَة والجلال والتوفيق فى الخطاب وتبليغ الرسالة ، وهُم صحابتُه ﷺ ، وهو القائل فيهم :

« أَصْحابِي كالنُّجُومِ : بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ . »

لقد آتاه اللهُ كلَّ ذلك ، وقد اشتملت كتب الحديث والسِّيَر على ما استفاضت به الأخبار من آياته ومُعجزاته صلى الله عليه وسلم .

والقُرآن العظيم والفُرْقان الكريم ، قد وُشِّح بفضائل سيد المرسلين ، وزُيِّن بمناقب حبيب رب العالمين ؛ حتى لو تأملت السُّوَر القرآنية بأسْرِها ، لم تر الله عزَّ وجلّ ، أنزل سورة وترك فيها ذِكر حبيبه صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم بالفضل والإكرام ، أو غير ذلك من الإنعام .. ولله درُّ القائل :

فَلا أَحَدٌ يَقْضِي نُعُوتَ كَمالِهِ

سِوَى رَبِّهِ ، سُبْحانَهُ وَتَبارَكا !

وقال آخر(١) :

مَدَحَتْكَ آياتُ الْكِتابِ فَما عَسى

يُثْنِي عَلَى عَلْيـاكَ نَظْمُ مَدِيحِي

وَإِذا كِتابُ اللهِ أَثْنَى مُفْصِحًا

كانَ الْقُصُورُ : قُصارَ كُلِّ فَصِيحِ

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة للوزير : لسان الدين بن الخطيب فى كتابه : « روضة التعريف بالحب الشريف » ط دار الفكر العربى .

ورحم اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ القائلَ[1] :

إذا رُمْتُ مَدْحَ الْمُصْطَفَى شَغَفًا بِهِ
تَبَلَّدَ ذِهْنِي هَيْبَةً لِمَقامِهِ
فَأَقْطَعُ لَيْلِي ساهِرَ الْجَفْنِ مُطْرِقًا
هَوًى فِيهِ : أَحْلَى مِنْ لَذِيذِ مَنامِهِ
إذا قالَ فِيهِ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ
رَؤُوفٌ رَحِيمٌ فِي سِياقِ كَلامِهِ
فَمَنْ ذا يُجارِي الْوَحْيَ ، والْوَحْيُ مُعْجِزٌ
بِمُخْتَلِفَيْهِ : نَثْرِهِ ونِظامِهِ ؟ !

وقال سيدى علىّ وفا ، رضى الله عنه :

لَوْ أَبْصَرَ الشَّيْطانُ طَلْعَةَ نُورِهِ
فِي وَجْهِ آدَمَ كانَ أَوَّلَ مَنْ سَجَدْ !
أَوْ لَوْ رَأَى النَّمْرُوذُ نُورَ جَمالِهِ
عَبَدَ الْجَلِيلَ مَعَ الْخَلِيلِ ، وَما عَنَدْ !
لٰكِنْ جَلالُ اللهِ عَزَّ ، فَلا يُرَى
إِلَّا بِتَخْصِيصٍ مِنَ اللهِ الصَّمَدْ

---

(١) يقول هذا الشاعر : ما عسى أن يبلغ الوصف أو يوفى المدح فى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟ !

وهذه الأبيات من المصدر السابق ص ٦٣٥ .

وكان نبينا صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، جميل الخَلْق والخُلُق ، جميل المُحَيَّا !.. ولم يكن هناك من هو أجمل منه ، حتى سيدنا يوسف ، وآدم أبو البشر ، كما ورد عن أنس رضي الله عنه ! . وإنما لم يُفتتن به صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم كيوسف ، لشدة تَحَجُّب جماله بالجلال والوَقار ..

ومع ذلك قالت فيه عائشة رضى الله عنها :

فَلَوْ سَمِعُوا فِي « مِصْرَ » أَوْصافَ خَدِّهِ
لَما بَذَلُوا فِي حُسْنِ « يُوسُفَ » مِنْ نَقْدِ
لَوَامِي « زُلَيْخا » ، لَوْ رَأَيْنَ جَمالَهُ
لآثَرْنَ تَقْطِيعَ الْقُلُوبِ عَلَى الأَيْدِي

* * *

وإذا صَحَّ أن السماء كانت تفتخر على الأرض قبل مولده صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، وحَرِيٌّ بها ذلك ، فكانت تقول : (إن العرش فيّ ، والملائكة والشمس والقمر والنجوم ، وأنتِ خِلْوٌ من هذا كله) .

فكان لها الفخر على الأرض ، إلى أن وُلد نبينا صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم ، فافتخرت به الأرض على السماء ، فقالت :

(إن كانت الشمس والقمر والنجوم فيكِ ،
فقد ولد على ظهري نبيٌّ مبارك !..
نورُ العرش من نوره ،
وعلى ظهري مَبعثه ودعوته ،
وعلى ظهري تُستعمل شريعته) .

فلا جرَم قد افتخرت الأرض – حقاً – بمحمد صلى الله تبارك وتعالى عليه – وآله وصحبه – وسلم ، فقد جعل الله شرقها وغربها طهورًا له صلى الله عليه وسلم ولأمته ، وجعلت شرقها وغربها مساجد للمسلمين ومُصَلًّى لهم ..

ولذا قال صلى الله تبارك وتعالى عليه – وآله وصحبه – وسلم :

« وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ : مَسْجِدًا ، وَطَهُورًا . »

ورحم الله من قال ، مشيرًا إلى ذلك :

فَلَوْ لَمْ يَعُمَّ الْأَرْضَ يَوْمًا كَمالُهُ
لَما عَمَّها نُورُ الصَّلاةِ الْمُتَمَّمُ
وَلَوْ لَمْ تُصافِحْ رِجْلُهُ وَجْنَةَ الثَّرَى
لَما جازَ يَوْمًا بِالتُّرابِ التَّيَمُّمُ

* * *

وأما البُقعة التى ضَمّت أعضاءه صلى الله تبارك وتعالى عليه – وآله وصحبه – وسلم ، فلا شك أنها أفضل بقاع الأرض والسماء وسائر الدنيا !.. ولذا قيل :

جَزَمَ الْجَمِيعُ بِأَنَّ خَيْرَ الْأَرْضِ ما
قَدْ حاطَ ذاتَ الْمُصْطَفَى وَحَواها
وَنَعَمْ : لَقَدْ صَدَقُوا ، بِساكِنِها عَلَتْ
كَالنَّفْسِ حِينَ زَكَتْ ، زَكا مَأْواها

* * *

ولطالما جال فى بالى ، أن أنشر منثور هـذه اللآلى ، من الصِّفات المحمدية ، والخصائص الأحمدية ؛ لأن هذا هو الأمر الأهم ، والشُّغل الأعظم ، والوسيلة الكبرى ، والنجاة العظمى ! . . لكن قِلَّةُ رأس مالى من العلم ، صَدَّنى عن أعزِّ آمالى ، وكنت أتمثل بقول « الشافعى » رضى الله تبارك وتعالى عنه :

كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى « سُعادَ » وَدُونَها
قُلَلُ الْجِبالِ ، وَدُونَهُنَّ حُتُوفُ ؟!
الرِّجْلُ حافِيَةٌ ، وَما لِيَ مَرْكَبُ
وَالْكَفُّ صِفْرٌ ، وَالطَّرِيقُ مَخُوفُ !

* * *

قال الله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ
أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا
أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ . ﴾

أى بشِّر المؤمنين بأنهم مخصوصون بنبىّ ، هو إمام الصّادقين والصديقين ؛ الشفيع المطاع ، وفيه تصريح بأنه عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام بُشرى من الله تعالى لعباده المؤمنين .

فعلى المسلمين الاتحاد ، وأخذهم بمحبته صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ؛ فإن به المنعة والقوة والعزة ، إن شاء الله تعالى ..

﴿ الباعث على نشر هذه الرسالة ﴾

كان الباعث الأول لى على نشر هذه الرسالة ، هو الوقوف على جزء يسير من معرفة قدر النبى صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، لكى يتحد المسلمون ولا يتباغضوا ، خصوصًا فى هذه الآونة العصيبة ، التى تقف فيها الأمة الإسلامية ، بكل ما استجمعت فى حصيلتها وذخيرتها من أمجاد ومواقف تجلُّ عن الوصف ، إن صحّ هذا التعبير .. فإنها تقف أمام عدوٍّ غاشم أهْوَج ، سواء كان هذا العدو من الغرب الاستعمارى بأذنابه وخُدّامه ، أو من الشرق الشيوعى بأتباعه وأشياعه ، وقد وقفا منها فى قديم الزمان وحديثه ـ وما زالا يقفان ـ موقف الحاقد البغيض ، يُريدان طمس أمجادها ، ويطآن مُقدّساتها ، ويحرمانها مكانتها التى حَظِيت بها فيما سلَف ، ليقطعا عليها طريقها الذى سارت فيه قُدُما ، لتحقيق أعلى غاياتها وأعز أمانيها .

وكان الباعث الثانى ، هو الوقوف على بعض المعرفة بكماله صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، وعُلُوّ قدره ، وتَسَنُّمِه آفاقًا بعيدة فى حياتَيْه : الأولى والآخرة ، بكل مَداراتهما المثالية ، وكيفية انصباغه بالصفات الإلهية ، وتخلُّقه بالأخلاق العظيمة ، أخلاق القرآن .. وما أعتقد إلا أن جميع من كتبوا عن سيِّد البشرية ـ مع العلم أنه لن تنتهى الكتابة عنه صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ـ إلا قد حاموا حول الحِمَى ، وكأن كتاباتهم جميعاً هوامش لصورة أصيلة فى الذهن والقلب ، تبلغ من الضخامة والسمو والرفعة ،

ما لا تستطيع معها هذه المُختَبَراتُ من الكتب المُطوّلات ، أن تقترب منها دفعة واحدة ، أو تُركّز عليها ، إلّا بعد استشرافها جوانب العظمة فيه صلى الله عليه وسلم ، أو الاستكشاف لما عساه أن يكون قد فاتها من نواحى عظمته ومثاليته النادرة صلى الله عليه وسلم !.

فأكثر كتب التراث التى تحدّث مؤلفوها عنه صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، إنما كانت تحوى النصوص القرآنية والحديثية ، وهى كثيرة لا تُحصى ، منها على سبيل المثال لا الحصر : كتاب « الشفا للقاضى عياض » و « الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى » .

ومن المختصرات اللطيفة كتاب « سفر السعادة » ، وهو فى ذكر حال رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم قبل نزول الوحى وبعده ، إلى أن لقى ربه جلّ وعلا ، وهو للعالم العلامة الشيخ « أبى طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى » صاحب القاموس ، ومختصر كتاب « الشمائل المحمدية » للحافظ الترمذى ، وبهامشه الشرح المسمى بـ « العطر الشذى » لمؤلفهما الشيخ الجليل : عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى .

وكثير من أسماء هذه الكتب ، وبعض أجزاء منها ، قد حواها « جواهر البحار » للعلامة الشيخ : يوسف النبهانى فى ثلاثة أجزاء . وغيره من الكتب التى لا يُمكن إحصاؤها .

ومن الكُتّاب فى العصر الحديث : كثيرون ألّفوا المؤلفات عنه صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم . .

منهم من انصرفت همته إلى الاستقصاء التاريخى ، كالدكتور المرحوم محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم ، وكذلك كتبه عن خلفائه عليه الصلاة والسلام : « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » كل ذلك على نحو منهجى ، قائم على حركة العقل ، ومُعطيات العلم ، بلا حدود .

وكاتب آخر ، هو المرحوم « عباس محمود العقاد » فى كتابه « عبقرية محمد » صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم ، وكتبه الأخرى من مجموع العبقريات ، التى انتحى فيها إلى اتجاه تحليلى ، وكذلك أعمال المرحوم الدكتور « طه حسين » التاريخية : « عثمان » و « علىّ وبنوه » و « الشيخان » و « مرآة الإسلام » داخل هذا الإطار ، مما جعل هذه الكتب وغيرها من الكتب التى تأخذ مسارها ، وهى تختلف تماماً عن الكتب القديمة .

* * *

على أننا كمسلمين يجب علينا أن نتجنب — فى كتب المتأخرين عامة — كل ما قالوه عن طريق الفكر والاستنتاج — ذلك لأنه مبنىّ على مذهب معين ، لهدف معين .

فما وافق ديننا قبلناه على الرأس والعين ،

وما لا يُوافق الدين رفضناه رفضاً باتًّا ،

كائناً من كان قائله .

والمنهج الذى يختلف عن منهج أهل الحديث ، وما ورد عن طريق صحيح : منهج مأفون ، لأن الأحداث الإسلامية كلها وردت عن طريق السَّنَد المتصل الصحيح .

فمثلا عند ما انتقل النبي صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم إلى الرفيق الأعلى ، قال للسيدة عائشة رضى الله عنها :

« إِدْعِي أَبَاكِ وَأَخَاكِ ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا ،
فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ ، وَيَقُولَ قَائِلٌ : أَنَا أَوْلَى .
وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ . »

(رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما من أهل الحديث) .

فما بال هؤلاء يتخذون منهجاً آخر ؟!

والمؤرخون القدامى — عفا الله عنهم — كثير منهم ، كحاطب ليل ، يأخذ ما غَثَّ وسَمُنَ ، ولا يُبالى بصحة الخبر وعدمها ، وذلك لسببين :

أولهما : أن مهمة التأريخ الجمع وحسب .

والثاني : تمذهب كثير منهم بمذهب معين ، فهو يكتب — فى الغالب — ليخدم مذهبه

وحتى لا نظلمهم ، فإنهم قد احتفظوا فى كتبهم — فى الغالب — بالسَّنَد المتصل أيضاً ، وما ورد بغير سند هو ما فيه الخلط ، وهو ما اختاره المستشرقون للطعن فى أئمة المسلمين .

وأما من دسُّوا أنفسهم من المعاصرين فى هذا الخِضَمِّ الزَّاخر من الأحداث ، فإنهم انتقوا أحداثاً مُعيَّنة ، لهدف معين يخدُم أعداء الإسلام ولا شك ، واحتجُّوا بالمؤرخين ، وضربوا صَفحاً عن السَّنَد الصحيح المتصل ، حتى يخدموا آباءهم الفكريين بالطراز المحبوب لهم .

والكُلُّ يحاول هدم الإسلام ، ونحن نعرف ذلك عن يقين ، والحمد لله رب العالمين ...

وعن دور الشعر : فى التعبير عن المشاعر الإسلامية ، والمناسبات الدينية التى تتعلق بالهجرة ، ومولد الرسول صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، فهناك كَمٌّ هائل ، لا سبيل إلى حصره . .
يكفيك منه معرفتك بـ « الإلياذة الإسلامية » المرحوم الشاعر « أحمد محرم » وهى تقع فى ٥٠٠٠ بيت من الشعر ، تناول فيها حياة الرسول صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ومغازيه فى ١٤٦ قصيدة جمعها فى ديوانه « ٤ أجزاء » ، ولو طال به العمر رحمه الله ، لأوغل فى سيرة الخلفاء الراشدين وفتوح الإسلام ! . .

والأدب العربى الدينى يفيض بالروائع الخالدة فى مدحه والحديث عنه صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، فى الزمن القديم والحديث ، وقد شرف قدر شعر الشعراء الذين مدحوا الرسول عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام .

قال أبو إسحق الغزى من قصيدة له :

جُحُودُ فَضِيلَةِ الشُّــــعَراءِ عِيٌّ
وَتَــكْرِيمُ الْــكَرِيمِ مِنَ الرَّشادِ

مَحَتْ بانَتْ سُعادُ ذُنُوبَ كَعْبٍ
وَأَعْلَتْ كَعْبَهُ فِي كُلِّ نادِ

وَما افْتَقَرَ النَّبِيُّ إِلَى قَصِـــيدٍ
مُشَبَّبَةٍ بِبَيْنٍ أَوْ سُــــعادِ

وَلٰــكِنْ ، سَنَّ إِسْداءَ الْأَيادِي
وَكانَ إِلَى الْمَكارِمِ خَــيْرَ هادِ

ولا خلاف بين رُواة السِّيَر والأخبار ، ولا بين علماء الأدب في أن كعب بن زهير نشأ على ما كان عليه أبوه من إحساس الطباع ، بَيْدَ أنه كان يُلازمُه رِقة حال ، ورقة ذات يد ، وقال الشعر فأجاد فيه ، غير أنه لم يكن مُكْثِرًا فيه كأبيه ، لأنه لم يشتهر إلّا بواحدته ، ولم تُؤثَرْ هي وتَشرُفْ إلّا بمن قيلت فيه صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم .

وسبب نظم القصيدة ، قالت الرُّواة : أسلم « بجير » ، فعلم « كعب » بإسلامه ، فاغتاظ وشقّ عليه ، فكتب إليه بأبيات من الشعر ينهاه عن إيمانه ويتطاول . فلما وقف « بجير » عليها ، أخبر بها رسول الله صلى الله عليه — وآله وصحبه — وسلم ..

فلما سمعها عليه — وآله وصحبه — الصلاة والسلام ، قال :

« مَنْ لَقِيَ كَعْبًا ، فَلْيَقْتُلْهُ . »

وأهدر الرسول عليه — وآله وصحبه — الصلاة والسلام ، دمه .

فكتب إليه أخوه « بجير » أبياتًا من الشعر ، مطلعها :

مَنْ مُبْلِغٌ « كَعْبًا » فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي
تَلُومُ عَلَيْهَا باطِلًا فَهْيَ أَحْزَمُ !

* * *

أي فهل لك في كلمة الشهادة التي تلوم عليها لَوْمًا باطلا ، فهي أجدى وأحزم ، ثم كتب له بعدها يُخبره أن رسولَ الله صلوات الله وسلامه عليه أهدر دمه ، فالْتَمِس الخلاصَ بأن تعتذر عمّا فرط ، فالنبي عليه الصلاة والسلام رؤوف رحيم ، وكريم حليم .

قالوا : فلما قرأ « كعب » الكِتَاب ، أَوْجَس خِيفَةً . وأتَى إلى مُزَيْنه : قبيلته ، لتحميه من الرسول صلى الله عليه وسلم . .

فأبت ذلك . وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فذهب إلى المسجد يلتمس النبيّ صلى الله عليه — وآله وصحبه — وسلم . .
فلما وصله تائباً مسلماً ، قال قصيدته تلك ، فرضى عنه النبيّ صلى الله عليه — وآله وصحبه — وسلم ، وقبل توبته ، وعفا عنه .

وأنشد « كعب » قصيدته على ثلاثة أقسام :

(١) الغزل إلى آخر البيت السابع والثلاثين .

(٢) مدح الرسول من البيت الثامن والثلاثين إلى البيت المُوفى خمسين .

(٣) مدح المهاجرين من الحادى والخمسين إلى آخرها

قالوا : فلما أنشد (وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ) ، قال صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم : « العفو عند الله » .

وحينما دخل « كعب » على النبى صلى الله عليه — وآله وصحبه — وسلم ، عرفه . . وقال : « أهذا كعب الذى يقول ما يقول ؟ » .

فقال العالم النابه شيخ الخلفاء الراشدين رضى الله عنه : نعم . قال :

(سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُورُ كَأْسًا رَوِيَّةً) .

فقال كعب : إنما قلت يا رسول الله :

سَقَاكَ أَبُو بَكْرٍ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ . فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَا

فقال عليه — وآله وصحبه — الصلاة والسلام : « مأمون والله »

وكره صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم : لفظة مأمور ، لأن العرب كانت تقول لمن يتكلم بالشيء من تلقاء نفسه : مأمور ، ويريدون أن الذى يقوله تأمره به الجن ، وإن كان النبي صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم مأمورًا من الله ؛ ولكنه كرهه لعادتهم ، فلما قال المأمون (بالنون) رضيه ، لأنه مأمون على الوحى .

ولما أنشد « كعب » قصيدته ، ووصل إلى :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ

مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

وهب له النبي صلى الله عليه وسلم بردته التى عليه .

وهذه البردة أرسل معاوية بن أبى سفيان عشرة آلاف درهم لكعب ، لتكون ثمنًا لها .

فأبى قائلا :

(ما كنتُ لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدًا) .

فلما مات كعب ، بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفا ، فأخذها منهم .

هل تعلم ؟ : أن سيدنا شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى البوصيرى رحمه الله ، عارض هذه القصيدة بأخرى ، يقول فيها :

إِلَى مَتَى أَنْتَ بِاللَّذَّاتِ مَشْغُولُ

وَأَنْتَ عَنْ كُلِّ ما قَدَّمْتَ مَسْئُولُ ؟!

فِي كُلِّ يَوْمٍ تُرَجِّي أَنْ تَتُوبَ غَدًا
وَعَقْدُ عَزْمِكَ بِالتَّسْوِيفِ مَحْلُولُ

أَمَا يُرَى لَكَ فِيمَا سَرَّ مِنْ عَمَلٍ
يَوْمًا نَشاطٌ ، وَعَمَّا ساء تَكْسِيلُ ؟

فَجَرِّدِ الْعَزْمَ ، إِنَّ الْمَوْتَ صارِمُهُ
مُجَرَّدٌ بِيَدِ الْآمالِ مَسْلُولُ

إلى أن يقول :

والْفَوْزُ فِي أُمَّةٍ ضَوْءُ الْوُضُوءِ لَها
قَدْ زانَها غُرَرٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ

تَظَلُّ تَتْلُو كِتابَ اللهِ لَيْسَ بِهِ
كَسائِرِ الْكُتْبِ تَحْرِيفٌ وَتَبْدِيلُ

فالْكُتْبُ والرُّسْلُ مِنْ عِنْدِ الْإِلَهِ أَتَتْ
وَمِنْهُمُو : فاضِلٌ حَقًّا وَمَفْضُولُ

والْمُصْطَفَى خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ
لَهُ عَلَى الرُّسْلِ تَرْجِيحٌ وَتَفْضِيلُ !

والبوصيرى هو الإمام العلامة العارف بالله ، وُلِدَ رحمه الله بدلاص ، وهى من قرى صعيد مصر ، فى أول شوال من سنة ٦٠٨ هـ ، وتوفى فى سنة ٦٩٥ هـ ودفن بالإسكندرية . .

وله ديوان مطبوع كله شعر جزل .

ولقد فتح الله عليه فى مدح رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، فمدحه بقصائد تُزْهَى على شعر

الفحول ، بالسهولة والجمال والجلال ، طار بها صيته ، وخلد بها ذكره ، منها (البُردة) وهى القصيدة الميمية التى مطلعها :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرانٍ بِذِي سَلَمِ
مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ ؟

وهى التى أنشدها بين يدى رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم « مناماً » ؛ فخلع عليه بُرْدته الشريفة ، ومسح على جسده ، وكان مريضاً مرضاً عضالا ؛ فشفى لوقته !..

ومنها الهمزية التى جمعت سيرة النبى صلى الله عليه وسلم مفصّلة ، وله رضى الله عنه قصيدة بليغة تُعَدُّ نحو ثلاثمائة بيت ، سميت بـ (المخرج المردود على النصارى واليهود) فنّد فيها مزاعم النصارى واليهود ، بحجج لا يجد سامعها منهم إلى الرد عليه سبيلا ، ختمها بمدح النبى صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم ، ملخصاً فيها سيرته . يقول فيه :

يا رَحْمَةً لِلعالَمِينَ : أَلَمْ تَكُنْ
طِفْلًا لِضُرِّ الْعالَمِينَ مُزِيلًا ؟ !

إلى أن يقول :

إِنِّى امْرُؤٌ : قَلْبِي يُحِبُّ « مُحَمَّدًا »
وَيَلُومُ فِيهِ : لائِمًا وَعَذُولَا
أَأُحِبُّهُ ، وَأَمَلُّ مِنْ ذِكْرِى لَهُ ؟ !
لَيْسَ الْمُحِبُّ لِمَنْ يُحِبُّ مَلُولَا

* * *

- ولله درُّ القائل(١) :

ما أَرْسَلَ الرَّحْمٰنُ ، أَوْ يُرْسِلُ
مِنْ رَحْمَةٍ تَصْعَدُ أَوْ تَنْزِلُ

أى بسببه صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، هكذا شاءت إرادة الله .

إلى أن يقول :

فَلُذْ بِهِ فِي كُلِّ ما تَرْتَجِي فَهْوَ شَفِيعٌ دائِمًا يُقْبَلُ
وَعُذْ بِهِ فِي كُلِّ ما تَخْتَشِي(٢) فَإِنَّهُ الْمَرْجِعُ والْمَوْئِلُ
ونادِهِ ، إِنْ أَزْمَةٌ أَنْشَبَتْ أَظْفارَها ، واسْتَحْكَمَ الْمُعْضِلُ
يا أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَى رَبِّهِ وَخَيْرَ مَنْ فِيهِمْ بِهِ يُسْأَلُ
قَدْ مَسَّنِي الْكَرْبُ ، وكَمْ مَرَّةٍ
فَرَّجْتَ كَرْبًا بَعْضُهُ يُذْهِلُ
وأَنْتَ بابُ اللهِ : أَيُّ امْرِئٍ أَتاهُ مِنْ غَيْرِكَ ، لا يَدْخُلُ !

* * *

اللهم لا تحرمنا شفاعته ولا عنايته ، وأدخلنا برحمتك في زمرة المتّبعين له بإحسان ، إلى يوم الدين .

(١) هو الشيخ محمد بن الشيخ أبي الحسن البكرى رضى الله عنه ، والأبيات طويلة ، ثم قال في آخرها : وأنت باب الله إلخ .

(٢) « تختشى » بوزن « تفتعل » من الخشية أى ما تخشاه . وليس معناها الحياء ، كما يستعملها الناس .

ولقد كان العبد الصالح صائباً فى إنشاده هذه الأبيات أيّما إصابة :

وَمِمَّـــــا زادَنِي شَرَفًا وَتِيهًا
وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَــأُ الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ : يا عِبَــادِي ،
وَأَنْ صَيَّرْتَ « أَحْمَدَ » لِي نَبِيَّا

* * *

حقاً : لأن من عرف تاريخ حياته صلى الله عليه وسلم الشريفة ، معرفة كاملة لا يعتريه أدنى شك فى أنه صاحب ذروة الكمال .. وبالإيمان برسالته إيماناً صادقاً ، تتبين حكمة العَلِيّ الأعلى سبحانه وتعالى ، فى اختياره صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم ، على السابقين واللاحقين ، ووضعه بالمحلّ الأعلى سيداً للخلق أجمعين ! ..

ومن أراد استقصاء ما أفرغ الله عليه من الكمالات فى أى نحو من أنحاء حياته ، فكأنما يحاول جمع ما فى البحار من درر ، أو ما فى السماء من شموس وكواكب ! ..

فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ ، لَيْسَ لَهُ
حَدٌّ ، فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ !

* * *

فأوسعُ الناس علماً ، وأفصحهم بياناً ، وأبلغهم لساناً ، لو تكلم عن هذه النفس العلية القدسية — فى أى نوع من أنواع كمالها — فإنه واقف دون الغاية :

وَلٰكِنْ تَأْخُذُ الْأَسْمَاعُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ الْقَرَائِحِ وَالْفُهُومِ

* * *

ورحم الله القائل :

أَحِبَّ رَسُولَ اللهِ ، تَحْظَ بِما تَشا
فَإِنَّ جَمِيعَ الْخَيْرِ فِي ذٰلِكَ الْحُبِّ
وَكُنْ راضِيًا بِاللهِ : مَوْلًى وَسَيِّدًا
وَأَخْرِجْ جَمِيعَ الْكائِناتِ مِنَ الْقَلْبِ

* * *

وإلى ذلك الحديث المُفعم بالنور والضياء ، الذى يجعلنا نتعشّق ذاته الشريفة ، ورسالته التى لم تكن محدودة بزمان ومكان ، لأنها خاتمة الرسالات السماوية ، أراد الله تبارك وتعالى لها ، أن تُواجه كل زمان ومكان ، وكل جيل من أجيال الناس على مستوى عمر البشرية قاطبة ، إلى نهاية العالم ؛ وما أظن أن هناك مجالا أمتع للاستمتاع الذهنى والقلبى — بالحق والحقيقة — من القرآن الكريم .

فلا يسعنا بعد هذه الكلمات ، إلا أن نذكر باختصار شديد ، بعض ما وهب الله تبارك وتعالى نبيّه المصطفى صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم من خصائص ومميزات ؛ لنعلم قدر عطائه تبارك وتعالى الشامل الكبير ، لنبيه صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم !..

كيف لا ، وهو الحكيم الجامع لجمل المنافع ، المشفّع الشافع ، والبحر المفيض ، الذى لا يغيض : لا نور إلا من نوره ، ولا فرح إلا لسروره ، ولا تعظيم إلا لتكريمه ، ولا علوم إلا من تعليمه ، الأمىّ العالم ، الفائق على كل الخلائق !!..

بعض ما جاء فى القرآن الكريم[1]

من تعظيم قدره صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم وعلو شرفه ومكانته الرفيعة المنيفة

(منها) قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ،

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ،

حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فأعطاه تبارك وتعالى اسمين من أسمائه .

قال القاضى « عياض » ، رحمه الله تبارك وتعالى :

أثنى عليه بمحامد كثيرة ، من حرصه على هدايتهم ورُشدهم ، وإسلامهم وشدة ما يعنتهم ، ويضرّ بهم فى دنياهم وأخراهم ، وعزته عليهم ، ورأفته ورحمته بمؤمنهم .

ومثله قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ،

إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ،

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ،

وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

---

(١) عن كتاب : (محمد صلى الله عليه وسلم ، القدوة المثالية) للمؤلف ـ ط العاصمة ١٩٧٥

وقوله عزَّ شأنه : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .

روى عن عليّ بن أبي طالب ، رضى الله تبارك وتعالى عنه ، عن النبى صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ ... مِنْ أَنْفَسِكُمْ ﴾ على قراءة فتح الفاء ، أنه قال : (نسباً وصهراً وحسباً .. ليس فى آبائى من لدن آدم سِفاح ، كلها نكاح) .

* * *

وقال « الكلبى » رضى الله عنه :

(كتبت للنبى صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم خمسمائة أمّ ، فما وجدتُ فيهن سِفاحاً ، ولا شيئاً مما كان عليه الجاهلية !)

وقال الإمام « جعفر الصادق » بن « محمد الباقر » رضى الله عنهما :

(علِمَ اللهُ تبارك وتعالى عجز خَلْقه عن طاعته ، فعرّفهم ذلك ، لكى يعلموا أنهم لا ينالون الصَّفْو من خِدمته .. فأقام بينه وبينهم مخلوقاً من جنسهم فى الصورة ، ألبسه من نَعْته الرّأفة والرحمة ، وأخرجه إلى الخَلق سفيراً صادقاً ، وجعل طاعته طاعته ، ومُوافقته مُوافقته ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ ، فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .)

وقال « أبو بكر بن طاهر » رضى الله عنه : (زيّن الله تبارك وتعالى سيدنا « محمدا » صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم بزينة الرحمة ، فكان كله رحمة ، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق ؛ فمن أصابه شىء من رحمته ، فهو النّاجى فى الدّارَيْن من كل مكروه ، والواصل فيهما إلى كل محبوب) .

ألا ترى أن الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

فكانت حياته رحمة ، ومماته رحمة ،

كما قال عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام :

« حَيَاتِى خَيْرٌ لَكُمْ ، وَمَمَاتِى خَيْرٌ لَكُمْ . »

وكما قال عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام :

« إِذَا أَرَادَ اللهُ رَحْمَةً بِأُمَّةٍ ، قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا ، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا . »

وقال « السمرقندى » رضى الله عنه : ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، يعنى الجن والانس ، وقيل لجميع الخلق ، للمؤمن رحمة بالهداية ، وللمنافق رحمة بالأمان من القتل ، وللكافر رحمة بتأخير العذاب عنه .

قال « ابن عباس » رضى الله تعالى عنه : (هو رحمة للمؤمنين والكافرين ، إذا عُوفوا مما أصاب غيرَهم من الأمم المُكَذِّبة . . .

وقد سماه الله تعالى فى القرآن نُوراً وسراجاً منيراً ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ،
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ .

وقد نبه الله سبحانه على عظيم قدره صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم فى سورة « الانشراح » ، ويكفى منها :

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

قال « يحيى بن آدم » رضى الله عنه : (بالنبوة)

وقيل : (إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معى فى قول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ») . وقيل : (فى الأذان) .

قال « قتادة » رضى الله عنه : (رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا مُتَشَهِّد ولا صاحب صلاة ، إلا يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله !)

قال الإمام « جعفر الصادق » رضى الله تعالى عنه :

(لا يَذْكُرُكَ أَحَدٌ بِالرِّسَالَةِ ،
إِلَّا ذَكَرَنِي بِالرُّبُوبِيَّةِ) .

قال بعضهم : وفى هذا إشارة إلى مقام الشفاعة .

ومِنْ ذكره معه تعالى أن قرن بينهما بواو العطف المشتركة ، ولا يجوز مثل هذا فى غير حقه عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام .

ولا يقال إنه وقع الجمع بين الله سبحانه وتعالى وبين الملائكة فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ .

لأن أئمة المفسرين وعلماء المعانى قالوا : إن الواو فى ﴿ يُصَلُّون ﴾ ضمير الملائكة خاصة ، وقدروا الآية : إن الله تبارك وتعالى يصلى ، وملائكته يصلون ، فراراً من التشريك ، فالواو هنا واو الاستئناف .

وقد روى عن « عمر » رضى الله عنه أنه قال :

من فضيلتك عند الله تبارك وتعالى ،

أن جعل طاعتك طاعته ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ ، فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى أيضاً :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ ، فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ .

قال « القاضى عياض » فى الشفا : ومما ذُكِر من خصائصه ، وبِرّ الله به أن الله تبارك وتعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم ، فقال :

﴿ يا آدَمُ ، يا نُوحُ ، يا إِبْرَاهِيمُ ، يا مُوسَى ،

يا داوُدُ ، يا عِيسَى ، يا زَكَرِيَّا ، يا يَحْيَى ﴾ .

ولم يُخاطَب هو صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم

إلّا بـ ﴿ يا أَيُّها الرَّسُولُ ، يا أَيُّها النَّبِيُّ ،

يا أَيُّها الْمُزَّمِّلُ ، يا أَيُّها الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

قال « أبو الجوزاء » : (ما أقسم اللهُ تبارك وتعالى بحياة أحد غير سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، لأنه أكرم البَرِيَّة عنده) .

قال « ابن عباس » : ما خلق الله تبارك وتعالى وما ذرأ ، وما برأ نفساً أكرم عليه من سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ! وما سمعت الله تبارك وتعالى أقسم بحياة أحد غيرك ، وذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ ، إذ معناه :

وبقائك يا محمد ، وقيل : وعَيْشُك ، وقيل : وحياتك .

وأصله ضم العين من العُمر .. ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال ، وهذا نهاية التعظيم ، وغاية التشريف ...

وفى هـــذا القدر الكفاية ؛ وإلا فالقرآن ملىء بما لا يُحصى من الآيات فى عظيم قدره ، ورفيع شأنه صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ؛ حتى لقد جاء الكثير فى الكتب السماوية الأخرى ، كالتوراة والإنجيل من وصفه والثناء عليه وكرامته صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ..

حيث يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ .. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ،
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ،
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ،
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ .
فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ
الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

نحمدك اللهم أن جعلتنا من خير أمة أخرجت للناس ، وحفظت القرآن الكريم من الضياع ، وحفظت رسولك الأمين صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم إلى يوم لحاقه بالرفيق الأعلى من كيد العابثين والحاقدين والكائدين ، والكافرين بك وبنعمائك .

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ،
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ،
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .
صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ،
وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ .

ورسالات الأنبياء جميعا هى إسلام الوجه لله . قال تبارك وتعالى :

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ :

وقال تبارك وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ،
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

بهذا استحقت الأمة الإسلامية أن تكون شاهدة على الأمم السابقة ، وأن يكون الرسول شهيداً عليها .

قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ،
لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ،
وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

والأنبياء إخوة ، ولذا كان المسلمون يؤمنون بالرسل ، ولا يفرقون بينهم ، ولا يكرهون أتباع هذه الديانات .

والإيمان بجميع الأنبياء والرسل السابقين — دون تفرقة بين أحد منهم — مقرر فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ،
وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَاسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ،
وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ،
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

والإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب ، وإن كان لا إكراه فى الدين على أحد . قال تبارك وتعالى :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

لقد اندرجت جميع الرسالات السماوية السابقة فى الإسلام .

قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ ... وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

وقال : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ .

لهذا كان صلى الله عليه وسلم أفضل البشر ، وبه امتنّ الله تبارك وتعالى علينا .. ومن أجل النِّعم التى أسداها إليه ، يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي : مَا الْكِتَابُ ، وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

تنبيها لعظم قدر سيدنا محمد صلى الله عليه — وآله وصحبه — وسلم .

وجميع أهل الأرض مدعوّون إلى الإسلام ، قال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ ، قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يستوى فى هـذه الدعوة الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، بل يلتقى فيها الإنس والجن ، قال تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ،
فَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ،
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ،
وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ .

والأنبياء جميعا مُطالبون بالتصديق برسول الله صلى الله عليه وسلم إن أدركوا بعثته أخذ الله تبارك وتعالى عليهم العهد ، وشهد جلّ جلاله عليه ، وكان عهد الله مسئولا .

قال تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ : قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ . فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

وفى الحديث الشريف قوله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« لَوْ كانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ ،
ما وَسِعَهُما إلَّا اتِّباعِي . »

والحديث الذى أخرجه « أحمد » فى مسنده :

« أنا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ،
لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ . »

واتمدد نواحى دلالة القرآن على صدق النبى صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ، كانت تلاوته تجمع بين الدعوة والحجة . .

وكثير من الداخلين فى الإسلام بإخلاص لم يشهدوا من آيات النبوة أكثر من أنهم سمعوا سورة أو آيات من القرآن ، فرأوا الدعوة مقرونة بالحجة ، فعرفوا أنه كلام الله تبارك وتعالى ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !..

قال تبارك وتعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وفى هذه الآية ما يُفيد امتلاء القرآن بآيات صدق الدعوة المحمدية ، وإنكار الله تبارك وتعالى على من يقترحون على رسوله صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم الآيات .

البشارة به صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآلِهِ وصحبه ـ وسلم في الكتب السالفة المقدسة ، ومن أسلم من اليهود والنصارى

أخبرت الأنبياء المتقدمة على نبينا صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم عن نبوته ، ولذلك جاء في القرآن الكريم أن أهل الكتاب يجدون النبي صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم في التوراة والإنجيل ، قال الله تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ، الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

وهذه الآية صريحة في أن المصطفى صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم مكتوب في التوراة والإنجيل .

والمراد بكتابته فيهما : ذكر مبعثه ودعوته وشيء من نُعُوته .

وهذا المعنى موجود في الكتابين يقيناً ؛ فقد نزلت الآية على مسمع من علماء الأمتين : اليهودية والنصرانية ، فمنهم من آمن به عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام ، وأخبر بما في كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته . ومنهم من لم يُنكر أن يكون قد ذكر في الكتابين رسول بهذه النُّعوت والعلامات ؛ ولكنه يُكابر في أن يكون المراد منه المصطفى صلوات الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم ويقول : إن المقصود منه نبي آخر .

وفى مثل هؤلاء نزل قوله تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

والإخبارات الواقعة فى حق رسولنا سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم كثيرة وموجودة إلى الآن . فقد جاء فى التوراة تبشيراً برسولنا الكريم ، خطاباً لسيدنا موسى — عليه السلام — فى الباب الثامن عشر من سفر التثنية هكذا :

(وَسَوْفَ أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِثْلَكَ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِمْ ، وَأَجْعَلُ كَلامِي فِي فَمِهِ وَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ آمُرُهُ بِهِ .

وَمَنْ لَمْ يُطِعْ كَلامَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي ، فَأَنَا أَكُونُ الْمُنْتَقِمَ مِنْ ذَلِكَ .

فَالنَّبِيُّ الَّذِي يَجْتَرِئُ عَلَيَّ بِالْكِبْرِيَاءِ ، وَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي بِمَا لَمْ آمُرْهُ بِهِ ، أَوْ بِاسْمِ آلِهَةٍ غَيْرِي ، فَلْيُقْتَلْ .

وَإِذَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ النَّبِيِّ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ ، فَهَذِهِ عَلامَتُكَ أَنَّ مَا قَالَهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ فَهُوَ كَاذِبٌ يُرِيدُ تَعْظِيمَ نَفْسِهِ ، وَلِذَلِكَ لا تَخْشَهُ) .

وهذه البشارة ليست بشارة يوشع عليه السلام ، كما يزعم الآن أحبار اليهود ، ولا بشارة عيسى عليه السلام ، كما زعم علماء بروتستنت ، بل هى بشارة سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم بوجوه :

الأول : أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبيًّا آخر مبشراً به ، وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح ، فلا يكون المبشر به يوشع ، ولا عيسى عليه السلام .

الثانى : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ (مثلك) . ويوشع وعيسى عليهما السلام لا يصحُّ أن يكونا مثل موسى عليه السلام ، لأنهما من بنى إسرائيل . ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيلَ مثل موسى ، كما تدلُّ عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر التثنية ، والنبى المماثل لموسى عليه السلام فى الرسالة العظيمة والشريعة المستأنفة هو سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم .

وأيضاً لا مماثلة بين يوشع وبين موسى عليهما السلام ، لأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونَوَاهٍ ، ويوشع ليس كذلك ، بل هو مُتَّبع لشريعته .

وكذا لا توجد المماثلة بين موسى وعيسى عليهما السلام ، لأن عيسى عليه السلام كان إلهًا وربًّا ـ على زعم النصارى ـ وموسى عليه السلام كان عبداً له .

الثالث : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ : (سوف أقيم) ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى عليه السلام ، داخلا فى بنى إسرائيل نبيًّا فى هذا الوقت .. فكيف يصدق عليه هذا اللفظ ؟!

الرابع : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ : (أجعل كلامى فى فمه) ،
وهو إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب ،
وإلى أنه يكون أُمِّيًّا حافظا للكلام ..

وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام ، لانتفاء كلا الأمرين فيه .

وأيضاً فى الباب الثالث من كتاب الأعمال فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ م هكذا :

(فَتُوبُوا وَارْجِعُوا كَيْ تُمْحَى خَطَايَاكُمْ ،
حَتَّى إِذَا تَأْتِي أَزْمِنَةُ الرَّاحَةِ مِنْ قُدَّامِ وَجْهِ الرَّبِّ ،
وَيُرْسَلُ الْمُنَادِي بِهِ لَكُمْ ، وَهُوَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ ،
الَّذِي إِيَّاهُ يَنْبَغِي لِلسَّمَاءِ أَنْ تَقْبَلَهُ إِلَى الزَّمَانِ الَّذِي تَسْتَرِدُّ فِيهِ
كُلَّ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ اللهُ عَلَى أَفْوَاهِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ .
إِنَّ مُوسَى قَالَ : إِنَّ الرَّبَّ إِلٰهَكُمْ يُقِيمُ لَكُمْ نَبِيًّا
مِنْ إِخْوَتِكُمْ مِثْلِي ، لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ .
وَيَكُونُ كُلُّ نَفْسٍ لا تَسْمَعُ ذٰلِكَ النَّبِيَّ تَهْلِكُ مِنَ الشَّعْبِ) .

فهذه العبارة — سيما بحسب التراجم الفارسية — تدلّ صراحة على أن هذا النبي غير المسيح عليه السلام ، وأن المسيح لا بد أن تقبله السماء إلى زمن ظهور هذا النبي ، وتكفى لإبطال ادّعاء علماء بروتستنت أن هذه البشارة فى حقّه عليه السلام .

والأوجه الأربعة التى ذكرناها تصدُق فى حقّ سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم على أكمل صدق ، لأنه غير المسيح عليه السلام ، ويُماثل موسى عليه السلام فى أمور كثيرة تظهر لمن تأمل فى شريعتهما ، ولذلك قال الله تبارك وتعالى فى كتابه المجيد :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ،
كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ .

سيما وأنه صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم من إخوة بنى إسرائيل ، مع كونه عربيًّا صرفًا لأنه من بنى إسماعيل وأنزل عليه الكتاب ... وكان أمّيًّا جعل كلام الله فى فمه .

وكان ينطق بالوحى كما قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . ﴾

وكان مأموراً بالجهاد . وقد انتقم الله لأجـله من صناديد قريش والأكاسرة والقياصرة وغيرهم ، وظهر قبل نزول المسيح من السماء ، وكان للسماء أن تقبل المسيح إلى ظهوره ، ليردّ كل شىء إلى أصله ويمحق الشرك والتثليث وعبادة الأوثان ، ولا يرتاب أحد من كثرة أهل التثليث فى هـذا الزمان الأخير ، لأن الصادق المصدوق قد أخبرنا على أتم تفصيل وأكمل وجه ، بحيث لا يبقى ريبٌ ما بكثرتهم وقت قرب ظهور المهدى رضى الله عنه ، وهذا الوقت قريب إن شاء الله ، ويكون الدّين كله لله .. جعلنا الله من أنصاره وخدامه آمين . وقد صرّح فى هـذه البشارة بأن الذى يَنسِبُ إلى الله ما لم يأمرهُ يُقتـل ، فلو لم يكن محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم نبياً حقاً لـكان يقتل ، وقد قال الله تبارك وتعالى فى القرآن المجيد :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ،
لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ .

وما قُتِل ، بل قال الله تبارك وتعالى فى حقه :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ..

وأوفى وعده ، ولم يقدر على قتله أحد حتى لحق بالرفيق الأعلى ، صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم .

وعيسى عليه السلام قتل وصُلب ـ على زعم أهل الـكتاب ـ فلو كانت هذه البشارة فى حقه ، لزم أن يكون نبياً كاذباً ، كما يزعمه اليهود ، والعياذ بالله !..

وعلماء اليهود سلموا كونه صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم مُبَشَّراً به في التوراة . لكن بعضهم أسلم ، وبعضهم بقى على الكفر .

ومن البشارات الآتية الحادية والعشرون من الباب الثاني والثلاثين من سفر الاستثناء هكذا :

[هُمْ أَغارُونِي[1] بِغَيْرِ إِلٰهٍ ، وَأَغْضَبُونِي بِمَعْبُوداتِهِمُ الْباطِلَةِ ، وَأَنا أَيْضًا أُغَيِّرُهُمْ بِغَيْرِ شَعْبٍ ، وَبِشَعْبٍ جاهِلٍ أُغْضِبُهُمْ] .

والمراد بشعب جاهل هم العرب في جاهليتهم ، لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال ، وما كان عندهم علم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية !.. وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأصنام والأوثان ، وكانوا مُحَقَّرين عند اليهود ، ولكونهم من أولاد هاجر الجارية ؛ فمقصود الآية أن بنى إسرائيل أغارونى بعبادة المعبودات الباطلة ، وأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقّرون وجاهلون .. فأوفى بما وعد ؛ فبعث من العرب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فهداهم إلى الصراط المستقيم ، كما قال الله تبارك وتعالى في سورة الجمعة :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يُفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولص في الباب العاشر من الرسالة الرومية ، لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلاثمائة سنة كانوا فائقين

---

(١) جاءت كلمة « أغارونى » في هذا السياق بمعنى « أغضبونى » .

على أهل العلم كلهم فى العلوم والفنون ، وكان جميع الحكماء المشهورين مثل سقراط ، وبقراط ، وفيثاغورث ، وأفلاطون ، وأرسطاطاليس ، وأرشميدس ، وبليناس ، وإقليدس ، وجالينوس ، وغيرهم الذين كانوا أئمة الرياضيات والطبيعيات وفروعها قبل عيسى عليه السلام ، وكان اليونان فى عهده على غاية الكمال فى فنونهم ، وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها وسائر كتب العهد العتيق أيضاً ، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية .

* * *

ومن البشارات ما ذكر فى الباب الرابع والخمسين من كتاب أشعياء . . هكذا :

(سَبِّحِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَسْتِ تَلِدِينَ ، أَنْشِدِي بِالْحَمْدِ

وَهَلِّلِي ، الَّتِي لَمْ تَلِدِي مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْكَثِيرِينَ

مِنْ بَنِي الْوَحْشَةِ أَفْضَلُ مِنْ بَنِي ذَاتِ رَجُلٍ .

يَقُولُ الرَّبُّ : أَوْسِعِي مَوْضِعَ خَيْمَتِكِ وَسُرادِقَ مَضَارِبِكِ ،

ابْسِطِي ، لا تُشْفِقِي ، طَوِّلِي حِبَالَكِ ، ثَبِّتِي أَوْتَادَكِ ،

لِأَنَّكِ تَنْفُذِينَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وَزَرْعُكِ يَرِثُ الأُمَمَ وَيُعَمِّرُ

الْمُدُنَ الْخَرِبَة . لا تَخَافِي لِأَنَّكِ لا تَخْزَيْنَ وَلا تَخْجَلِينَ ،

فَإِنَّكِ لا تَسْتَحِينَ .. إِنَّمَا الرَّبُّ دَعَاكِ مِثْلَ الْمَرْأَةِ

الْمُطَلَّقَةِ وَالْحَزِينَةِ الرُّوحِ ، وَزَوْجَةٍ مُنْذُ الصِّبَا مَرْذُولَةٍ .

قَالَ إِلٰهُكِ : فِي سَاعَةِ الْغَضَبِ : أَخْفَيْتُ قَلِيلاً

وَجْهِي عَنْكِ ، وَبِالرَّحْمَةِ الأَبَدِيَّةِ رَحِمْتُكِ .

حَلَفْتُ أَنْ لا أَغْضَبَ عَلَيْكِ ، وَأَنْ لا أُوَبِّخَكِ ؛
فَإِنَّ الْجِبالَ تَرْتَجِفُ ، والتِّلالَ تَتَزَلْزَلُ ،
وَرَحْمَتِي لا تَزُولُ عَنْكِ ، وَعَهْدُ سَلامِي لا يَتَحَرَّكُ .
ها يأْبَى الْحارُّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مِنِّي ،
والَّذِي قَدْ كانَ قَرِيبًا يَقْتَرِبُ إِلَيْكِ .
ها أَنا ذا ، خَلَقْتُ صائِغًا الَّذِي يَنْفُخُ فِي النّارِ جَمْرًا ،
وَيُخْرِجُ إِناءً لِعَمَلِهِ ، وَأَنا خَلَقْتُ قَتُولًا لِلإِهْلاكِ .
كُلُّ إِناءٍ مَجْبُولٌ ضِدَّكِ لا يَنْجَحُ ،
وَكُلُّ لِسانٍ يُخالِفُكِ فِي الْقَضاءِ تَحْكُمِينَ عَلَيْهِ .
هٰذا هُوَ مِيراثُ عَبِيدِ الرَّبِّ) .

المراد بالعاقر فى الآية الأولى « مكة المعظمة » ، لأنها لم يظهر منها نبيّ بعد إسماعيل عليه السلام ، ولم ينزل فيها وحى ، بخلاف « أورشليم » ؛ لأنه ظهر فيها الأنبياء الكثيرون ، وكثر فيها نزول الوحى . وبنو الوحشة عبارة عن أولاد هاجر ، لأنها كانت بمنزلة المطلقة ، المخرجة عن البيت ، ساكنة فى البر . ولذلك وقع فى حق إسماعيل عليه السلام فى وعد الله هاجر (هذا سيكون إنسانًا وحشيًا) كما هو مصرّح به فى الباب السادس عشر من سفر التكوين ، وبنو ذات رجل ، عبارة عن أولاد سارة ، فخاطب الله مكة آمراً لها بالتسبيح والتهليل وإنشاد الشكر ، لأن كثيرين من أولاد هاجر صاروا أفضل من أولاد سارة ، فحصلت الفضيلة لها بسبب حصول الفضيلة لأهلها ، ووفى بما وعد ، بأن بعث سيدنا محمداً صلى الله تبارك وتعالى عليه

وسلم أفضـــل البشر خاتم النبيين ، من أهلها فى أولاد « هاجر » . .
وهو المراد بالصائغ الذى ينفخ فى النـــار جمراً .. وهو المقتول الذى خلق لإهلاك المشركين .. وحصل لها السعة بواسطة هذا النبى ..

وما حصل لغيرها من المعابد فى الدنيا ، إذ لا يوجد فى الدنيا معبد مثل الكعبة من ظهور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذا الحين ! ..

والتعظيم الذى يحصل لها من القرابين فى كل سنة من مدة ستة وعشرين وثلاثمائة وألف عام ، بل وإلى يوم القيامة — إن شاء الله تعالى — لم يحصل لبيت المقدس إلا مرتين : مرة فى عهد سليمان عليه الصلاة والســـلام ، لما فرغ من بنائه فى السنة الثامنة عشرة من سلطنة توشيا . ويبقى هذا التعظيم لمكة إلى آخر الدهر إن شاء الله ، كما وعد الله بذلك فى هذه الآيات .

وملك المسلمون زرعها شرقاً وغرباً ، وورثوا الأمم ، وعمروا المدن فى مدة قليلة ، لا تتجاوز اثنين وعشرين سنة من الهجرة ! ..

ومثل هذه الغلبة — فى مثل هذه المدة القليلة — لم يسمع بها من عهد آدم — عليه السلام — إلى زمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ولم يُظْهِرْ شريعة جديدة بعـد شريعته صلى الله عليه وســلم ..

بل وعد الله سبحانه وتعالى بأن يظهر دينه على الدين كله ؛

وهذا مَفاد قوله : (وزرعك يرث الأمم ، ويعمر المدن الخربة) .

وسلاطين الإسلام سلفاً وخلفاً ، اجتهدوا اجتهاداً تامًّا فى بناء الكعبة والمسجد الحرام وتزيينهما ، وحفروا الآبار والعيون فى مكة ونواحيها .. هذا غير ما تم — فى وقتنا الحالى — من إصلاحات .. والغرباء يحبُّون مُجاورتها — من ظهور الإسلام ، إلى هذا الحين — وألوف من الناس يصلون إليها فى كل سنة ، من أقاليم مختلفة وديار بعيدة ..

ووفى بما وعد بقوله : (كل إناء مجبول ضدك لا ينجح) ، لأن كل شخص أو أمة قامت بضدها أذلها الله ، كما وقع بأصحاب الفيل ..

* * *

ومن البشارات ما ذكر فى الثانى من المشاهدات ، هكذا :

(ومَنْ يَغْلِبُ وَيَحْفَظُ أَعْمالَهُ إلَى النِّهايَةِ ،

فَسَأُعْطِيهِ سُلْطانًا عَلَى الأُمَمِ ، فَيَرْعاهُمْ بِقَضِيبٍ مِنْ حَدِيدٍ ، كَما تَكْسِرُ آنِيَةً مِنْ خَزَفٍ . وَأُعْطِيهِ كَوْكَبَ الصُّبْحِ) .

فهذا الغالب الذى أعطى سلطانا على الأمم ، ويرعاهم بالقضيب من الحديد تارة ، وبالموعظة الحسنة واللين والرفق والشفقة والرحمة تارة أخرى ، هو سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه – وآله وصحبه – وسلم ، كما قال الله تبارك وتعالى فى حقه :

﴿ وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

وقد سماه « سطيحُ » الكاهِنُ صاحبَ الهِراوة (أى العصا الضخمة) فكنوز الأرض فى رسالته ، والإنسانية كلها فى كفالته : تهاوت عند مولده صلى الله تبارك وتعالى عليه – وآله وصحبه – وسلم شرفات إيوان البغى ، إنذاراً بزوال ظلم الأكاسرة وسطوة بيزنطة ، وانهارت قواعد المجوسية ، مع دخانها المتلاشى فى بيت النار ، وغاضت أمواج الكفر المتلاطمة على دموع المظلومين !..

حتى إذا بلغ أشُدَّه وبلغ الأربعين سنة ، لم يعد وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقط ، بل أصبح سيدنا محمدٌ – رسول الله صلى الله عليه وسلم – يزلزل عروش الجبارين من حراء ، ويحمل إلى الأرض كتاب السماء ، ويبلغ رسالة ربه إلى ذرية آدم وحواء !..

أُمِّيٌّ يُعلِّمُ الأمم ، ويُرشد القارئين والكاتبين !
يُوَحِّد في توحيده الشعوب ، ويجمع حول أنواره القلوب !
وفي شريعته انتهت شرائع الأنبياء ،
وفي سيرته التقت فضائل المرسلين جميعاً .

ثبات نوح ، وافتداء الذبيح ، ودعاء المسيح ، ووفاء إبراهيم ، وإيمان الكليم ، وتَحَنُّف زكريا ، وحنان يحيي !.. الأنبياء قبله أبوابه ، والعارفون بعدُ نوابه ، والنصر كتيبته ، والحقّ كتابه !..

طهّر كعبة الله من الأوثان ، وأرسل نشيد التوحيد من صوت بلال بالأذان ، فلم تكن إلا سنوات معدودات ، حتى سجد المؤمنون على أرض الإيوان ، لرب العالمين وحده ، لا لكسرى أنوشروان ! ثم أقاموا الصلاة لرب السماوات في محراب داود بالمسجد الأقصى ، فما ظنكم برب العالمين !..

هذا هو نبي الله : منار الكائنات ، وواحد النَّيِّرات ، الذى أنار الأرض بالسجدات ، وأذاع نسيم الجنة من الحجرات ، كانت على بابه وفود ، وعند أمره جنود ، والمغانم كثيرة ، والنعم وفيرة.. ومع ذلك مطيته — بعد البراق — الناقة والبعير ، يُؤثِّر في جنبه الحصير ، ولو شاء لجاءه من الفردوس الحرير ، ولو أراد لصافحه القمر المنير ! .

* * *

والمعروف أن ليلة ولادته صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم انشقّ إيوان كسرى أنوشروان ، وسقط من ذلك أربع عشرة شرافة ، وخمدت نيران فارس ، ولم تخمد من قبل ذلك بألف عام ، وغارت بحيرة « ساوة » بحيث صارت يابسة !..

ورأى « الموبذان » فى نومه : أن إبلا صِعابا تقود خيلا عرابا ، فقطعت « دجلة » وانتشرت فى بلاده !..

فخاف كِسرى من حدوث هذه الأمور ، وأرسل « عبد المسيح » إلى الكاهن الذى كان فى الشام ..

ولما وصل « عبد المسيح » إليه ، وجده فى سكرات الموت ، فذكر هذه الأمور عنده ... فأجاب « سطيح » :

(إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ،

وغاضت بحيرة « ساوة » ، وخمدت نار فارس ،

فليست بابلُ لِلفُرْسِ مقامًا ، ولا الشـــام لسطيح مناماً ،

يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات ،

وكل ما هو آت آت) .

ثم مات « سطيح » من ساعته ، ورجع « عبد المسيح » ، فأخبر « أنوشروان » بما قال « سطيح » ..

قال كسرى :

(إلى أن يملك أربعة عشر ملكا ، كانت أمور وأمور) .

فملك منهم عشرة فى أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة « عثمان » رضى الله عنه ، فهلك آخرهم « يزدجرد » فى خلافته .

وكوكب الصبح عبارة عن القرآن ، قال تعالى فى سورة النساء :

﴿ ... وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ .

وفى سورة التغابن :

﴿ ... فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا ... ﴾ .

وما كان القرآن نوراً إلّا لأنه كتاب الإسلام الذى يبرأ من التعصب ، ويأمر بتصديق سائر الرسل ، والإيمان بما أنزل الله من كتب ، وذلك بكل وضوح وجلاء فى كتابه الكريم ..

يقول الله عز وجل :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وها أنت ترى أن الديانات الثلاث — فى جوهرها وصلبها — تنطق — كما لو كانت — كلا واحداً ، وتعزف على نغمة واحدة ، فتصرّح جميعها بالعرف والإحسان ، وتدعو الإنسان لحب أخيه الإنسان ، وكان أوضحها وأصرحها — فى ذلك — هو الإسلام !..

أما من جهة القرآن وعلوّ شأنه ، وقد تحدَّى الله سبحانه وتعالى جميع من فى الوجود من الجن والإنس أن يأتوا بمثله ، فقال جلّ شأنه :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

لما سمع المشركون الذين تحدوا القرآن ، قالوا : ما يشبه هذا كلام ! وإنا لفى شك منه !..

فنزلت هذه الآية ، ووجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فى الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ، ذكر بعدها الدلالة على نبوة سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم .

وأخير (نزّلنا) لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم .

وكل سورة من سور القرآن لا يمكن أن يأتى بمثلها أحد ..

والقرآن كلـــه معجز ، فلا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدّى على وجه المعارضة .. لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يشهد أهل الكتاب على أنفسهم ، وأن يسجل عليهم الإقرار بصدقه صلى الله عليه وسلم وأمانته فى دعوته إليهم ، بما تحدّاهم به بقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ،

كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ،

وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وما دام القرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته ، وأنه يبقى بلا تعديل ولا تغيير ، فهو الحقيقة والصدق .. ومن أصدق من الله قيلا ؟!

وإلا ما استطاع رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم أن يجهر به ويتلوه على أهل الكتاب ، بل والعالم كله !..

وإلا فإذا أخبر القرآن بشىء ، واتضح أنه غير صحيح ، كان ذلك هدماً للدين كله .. وحاشا أن يكون ذلك !..

قال مالك رضى الله عنه : (المعنى أن بعضاً من أهل الكتاب كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير من الأحبار والحواريين فيما بلغنا) أى عن كتبهم المقدسة .

وصدقوا .. فإن هذه الأمة المحمدية — خصوصاً الصحابة — لم يزل ذكرهم معظماً فى الكتب ، كما قال سبحانه وتعالى فى كتابه :

﴿ ... ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ

كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ، فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى

عَلَى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .

والمعنى أن أصحاب سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم آزروه وأيدوه ونصروه ، فهم معه كالشطء مع الزرع ، و (شَطْأُهُ) أفراخَه (ليغيظ بهم الكفار) .

ومن هذه الآية انتزع الإمام « مالك » ـ رحمه الله ، فى رواية عنه ـ تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة .

قال : (لأنهم يغيظونهم) ومن غاظه الصحابة فهو كافر ..

وقد وافقه على ذلك جماعة من العلماء . والأحاديث فى فضل الصحابة كثيرة ، ويكفى ثناء الله تبارك وتعالى عليهم ، ورضاؤه عنهم ..

وقد وعدهم الله مغفرة وأجراً عظيماً ، ووعدُ الله تبارك وتعالى حقّ وصدق لا يُخلف ، لا مُبدل لكلماته وهو السميع العليم ..

صلاة الله ـ تبارك وتعالى ـ وسلامه عليك

ـ وآلك وصحبك ـ وسلم يا سيدى يا رسول الله ،

فقد كوّنتَ بأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ أمة فى زمن لا يكفى لتكوين رجل واحد !.. ثلاثة وعشرون عاماً هى مدة البعثة والهجرة ؛ ولكنها أعظم من ثلاثة وعشرين قرناً ، ومن ثلاثة وعشرين دهراً كاملة فى عمر الوجود الإنسانى !.. استخرجت بها من أصداف العروبة أصفى لآلئها وأعلى فِطَرِها ، فابتعثتَ منها جنود الله تبارك وتعالى :

تراهم بشراً ، وهم مصابيح تضىء وجوههم الظلماء ،

تبدو أعمالهم وكأنها فاكهة الجنة على الأرض !..

كنتَ سيدى رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليك ـ وآلك وصحبك ـ وسلم تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ؛ فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم !.. فتحتَ لهم من الصحراء طريق الجنة ، وسقيتهم من شريعتك رحيق الكوثر ؛ فماشوا رُقباء على أنفسهم ، كأنهم فى ساحة المحشر ، يخافون الله فلا يعصونه ، ويحبون الله فيطيعونه .. ملائكة بالليل للتسبيح والصلاة ، وأبطال بالنهار للجهاد فى الحياة !..

هؤلاء هم كواكب الأمة المولودة حين ولد محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه – وآله وصحبه – وسلم ! .

فهل أنتم – أيها المؤمنون – مستعدون لأن تتخذوا من مولده صلى الله تبارك وتعالى عليه – وآله وصحبه – وسلم مولداً لأنفسكم ؛ ومن ربيعه – في كل عام – ربيعاً لتجديد أخلاقكم ؟ ! ...

ومن البشارات ما ذكر في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا :

(إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ .
وَأَنا أَطْلُبُ مِنَ الأَبِ أَنْ يُعْطِيَكُمْ فارْقَلِيط آخَر
يَثْبُتُ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ) .

وقد وصف المسيحُ هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبينا فقال :

(إِنَّهُ يُوَبِّخُ الْعالَمَ عَلَى خَطِيئَتِهِ ،
وَإِنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ جَمِيعَ الْحَقِّ ، لأَنَّهُ لَيْسَ يَنْطِقُ مِنْ عِنْدِهِ ،
بَلْ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ ما يَسْمَعُ) .

وهذا كما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

و (الفارقليط) معناه قريب من « محمد » و « أحمد » . .

ويصدقه في القرآن قول الله تبارك وتعالى في سورة الصف :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ : أَحْمَدُ ﴾ .

ولعل نسخة التوراة الأصلية الموجودة باليمن ، بها ما نحتاج إليه .

مولده : صلى الله عليه وسلم

ما زال البشير النذير ، يتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ، حتى ولدته أمه .

لم يمسسه من سفاح الجاهلية شيء ، وفى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل ، إذ كان عبد المطلب بن هاشم فى مجلسه الممتاز عند الكعبة ، فأقبل عليه رسول يبشره بأن قد ولد لابنه : عبد الله ، غلام !

فامتلأ قلب الشيخ فرحاً ، وقام مسرعاً إلى أم الطفل : آمنة بنت وهب ، وأخذه بين يديه وسار به حتى دخل الكعبة ، حيث سماه : محمداً .

وكان هذا أول العهد باسم محمد ، الذى يشير إلى حميد الأفعال ، وكريم الخصال .

وتقول السيدة آمنة : لما تولى من حمله ستة أشهر ، مات أبوه : عبد الله ، وما شكوت فى مدة حمله وجعاً ولا ألماً ولا ثقلا .. ولما حان وقت ولادتى ، لم يعلم بى أحد من قومى ، وإنى لوحيدة فى المنزل وجده عبد المطلب في طوافه ! . فمددت كف السؤال إلى من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء !. ثم نظرت نوراً أضاء منه المكان ، فوضعت الحبيب ، معتمداً على يديه ، شاخصا إلى السماء بعينيه !..

ولد النبي صلى الله عليه وسلم مقطوع السُّرَّة نظيفاً مختوناً ، وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم :

« مِنْ كَرامَتِي عَلَى رَبِّي ، أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُونًا لَمْ يَرَ أَحَدٌ سَوْءَتِي » .

وفى ليلة ولادته ، خمدت نيران فارس التى كانوا يعبدونها ، وخرت الأصنام منكبة على وجوهها ، وغاضت مياه بحيرة (ساوة) ! بل لقد ظهرت لوضعه أنوار أضاءت لها قصور (بُصرى) ! وارتجّ فى هذا اليوم الشريف إيوان كسرى ! . وتوالت الهواتف تزف إلى العالم أجمع هذه البشرى . أن قد ولد المصطفى سيد الخلق والبشر . . .

رضاعه : صلى الله عليه وسلم

قد اختار الله تعالى لإرضاعه حليمة السعدية .

فاستمعْ إليها إذ تقول : كان من عادة أهل مكة أن يخرجوا بالأطفال إلى المراضع ، فأصابتنا سنة لم يأت الغيث فيها ، فجئنا فى أربعين امرأة نلتمس الرضاع ليواسونا بالرفد (العطاء) .

فدخلنا مكة . . وأتى أهل مكة بأولادهم عند الكعبة ، فوقف كل والد إلى جانب ابنه .. فتقدمت كل امرأة فأخذت مولوداً !.. فنظرت أنا ، فلم أر غير مولود ليس إلى جانبه أحد !..

فسألت عن أبيه ، فقيل لى : إنه يتيم مات أبوه وأمه حامل به ، وهى الآن ضعيفة ، فقلت لبعلى : لم يبق إلا هذا المولود ، وهو يتيم لا أب له ! فقال : ويحك . خذيه ولا نرجع خائبين ، فلعل الله تعالى أن يرزقنا بأجره وثوابه .

قالت حليمة : فأخذته ، وليس فى صدرى قطرة من اللبن ، من الضعف والجوع . . فلما حملته قوى ضعفى ! ثم وضعت ثديى فى فيه ، فسال اللبن وتدفق !.. فشرب حتى روى ! .

ثم ركبت الدابة ، وكانت ضعيفة ، فجعلت تسبق الدواب فى القافلة ، فعجب الناس من ذلك .

قالت : فلما وصلنا إلى المنزل ، كانت عندنا شياهٌ عجاف ؛ فأخذنا يده ومررنا بها عليها ، فدرّت لوقتها اللبن !.. وكثر الرزق والخير علينا ببركته ، حتى حسدتنا عليه جميع المراضع .

وكنت إذا أعطيته ثديه أخذه ، وإذا أعطيته ثدى أخيه فى الرضاع (ابنى) لم يأخذه !

وانقطع عنا الغيث ، فقالوا : ياحليمة إن هذا المولود الذى عندك على وجهه نور ! فلو أخذتِه معك حتى نستسقى به الغيث ، لكان خيراً لنا .

فأخرجته لهم ، فأخذوه وحملوه على أيديهم ، وخرجوا به إلى ظاهر البلد ، فدعوا به .. وإذا السحب قد جادت بالغيث حتى خفنا الغرق ! ولم يزل عندنا حتى قضيت رضاعه ..

حياته : الأولى صلى الله عليه وسلم

ولما بلغ السادسة من سنى عمره توفيت والدته ، فحضنته أم أيمن ، وكفله جده : عبد المطلب ، ثم كفله عمه : أبو طالب ؛ فكان عوناً له فيما ألَمَّ به إبان دعوته إلى الله تعالى ...

أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته حتى بلغ رشده : طاهر الذيل عفيف اللسان ، مرموقاً بالإجلال من سادات العرب ، لعزوفه عمّا يقبل عليه شبان قريش ؛ فلم يُعاقرهم خمراً ، أو يلاعبهم ميسراً ، أو يَخُضْ معهم فى حديث !.. فأصبح بذلك أحسن الناس خُلقاً ، وأصدقهم حديثاً ، وأكثرهم تواضعاً ، وأبعدهم عن دنايا الأمور ..

وقد روى البخارى أن هرقل : ملك الروم سأل عنه أبا سفيان قبل إسلامه : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول مقالته ؟

قال : لا .. قال هرقل : ما كان محمد ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله !.

وقال النضر بن أبى الحرث لقريش عندما كذّبوا النبى صلى الله عليه وسلم : لقد كان محمد فيكم غلاماً ، أرضاكم وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به : قلتم ساحر ! . لا والله ، ما هو بساحر !..

وحدث أن لقى رجل أبا جهل ، وكان من ألد أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ فقال له : يا أبا الحكم ليس هنا غيرى . فخبرنى عن محمد : أصادق هو أم كاذب؟

فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب قط .

ولما حان الوقت ليحمل رسالة ربه إلى الناس كافة ، حببت إليه الخلوة ليفرغ قلبه ، وينقطع عن الخلق ؛ فكان يخلو بعيداً عن مكة بغار حراء ، يتعبد فيه الليالى مفكراً متأملا ، تأخذه الحيرة التى تقود إلى الهدى ، تاركا روحه تسبح سبحا طويلا فى سر هذا الكون العجيب ! تناجيه نفسه صلى الله عليه وسلم بـ « إن فى السماء لخبراً ، وفى الأرض لعبراً .. » إلى أن بلغ الأربعين ، فاستيقظ على صوت الملك : جبريل الأمين ، الذى أيقظ من قبل موسى وعيسى وسائر الأنبياء والمرسلين قائلا له :

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اِقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فأدرك بعد قليل أن الله جلت قدرته ، وتعالت حكمته ، قد اختاره شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ..

جهاده وصبره : صلى الله عليه وسلم

وكان سبب إيذاء المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعاندتهم له وغضبهم عليه ، بعد حبهم له ، أنه عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى عبادة الله وترك ما كانوا يعبدون من الأصنام ؛ فكبر عليهم أن يسوءهم ويغير معتقداتهم ، ولذا لم يؤمنوا به عناداً واستكباراً .

هجرته : صلى الله عليه وسلم

لقد رأى رجال قريش أنهم إن لم يتدبروا الأمر وينظروا فيه ، فإن أمر محمد ﷺ غالب ، وشأنهم ذاهب ؛ فاجتمع أشرافهم ورؤساؤهم وقال أحدهم : لقد علمتم أن أمر محمد قد ظهر وجاوز مكة إلى يثرب ، وإنا قد بلونا أصحابه بأنواع الأذى وصنوف المحن ، فوجدناهم صابرين أقوياء .. ثم وجدوا عند الخزرج والأوس عضدا ونصيراً ، فهُرِعوا إليهم بعد أن أذن لهم محمد — ﷺ — بالهجرة غير مبالين بأوطانهم وأموالهم وأولادهم ، وأكبر الظن أن محمداً سيلحق بهم ، وإذن ستكون المصيبة أشد ، ثم يثب علينا بهم ، فتدور الدائرة علينا !..

فأبدى كل منهم رأيه ، إلى أن انتهوا إلى رأى أبى جهل ، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً جليداً نسيباً ، ثم يعطوا كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ويعمد هؤلاء إليه فيقتلوه ؛ وبذا يستريحون منه .. وأنهم إن فعلوا ذلك ، تفرق دمه بين القبائل ، ولم يقدر بنو عبد مناف على ضرب قومهم جميعاً .. فاستراحوا لهذا الرأى ، وتفرقوا على ذلك .

ويوم أن اجتمعت قريش ، وأعدت كيدها هــذا ، أوحى الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن القوم قد بيتوا لك أمراً منكراً ؛ فخذ عزمك للرحيل إلى المدينة .

فتوجه الرسول صلى الله عليه وسلم من ساعته ، لأبى بكر رضى الله عنه ـ الذى راح يهيئ الراحلتين ـ وواعـده العتمة لصحبته . .
ثم عاد إلى داره ، وهو عالم أن القوم سيحيطون بالمنزل ، هذه الليلة ، متربصين خروجه ليقتلوه !..

وما انتصف الليـل حتى خرج عليهم ، بعد أن أمر عليًّا أن ينام فى فراشـه ويتسجى ببردته ، وألقى الله عليهم النوم فناموا !..
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ينتبهوا !..

ثم ذهب إلى دار أبى بـكر رضى الله عنه ، وسارا حتى بلغـا غار « ثور » ، فدخلاه ومكثا فيه ثلاثة أيام .

وفى هذا أنزل قوله تعالى :

﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ،
إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

وكان يمر عليهما عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر ، بالأغنـام فى أعقاب اليوم ، فيحتلبان ويذبحان . . ويأتى لهما عبد الله بن أبى بكر بالأخبار حتى سكن الطلب ، وغفل عنهما الناس .

ثم جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين ، وخرجا متوجهين إلى المدينة ، وأبو بكر لا يفتأ يذكر الطلب ، فيتلفت خلفه ، ويخاف الرصد حتى أدركهما سُراقة بن مالك . .

وما اقترب منهما ، حتى عثر به فرسه ، وساخت قوائمه فى الأرض ، ثم ثار من حوله الغبار والإعصار !

فأدرك سُراقة أن محمداً — رسول الله صلى الله عليه وسلم — ممنوع منه ، ولهذا استغاث بالرسول صلى الله عليه وسلم على أن لا يخبر قريشاً بشيء مما رآه .. فدعا له الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعاد سُراقة ، ولم يقل لقومه شيئاً ..

وكان المسلمون من أهل المدينة يخرجون إلى ظاهر البلد كل يوم ، لا يعودون إلى منازلهم حتى تغلبهم الشمس ، حتى كان يوم رجعوا منه إلى منازلهم ، وما راعهم إلا صائح يهتف : إن محمداً قد جاء .

فخرجوا إليه مهرولين ، وأحاطوه بنفوسهم ، فأقام بينهم أياماً ، أسس أثناءها المسجد بقباء ، ثم خرج بناقته والقوم يتهافتون عليها ، فكان يقول لهم صلى الله عليه وسلم .

« خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ! »

وما زالت تسير حتى إذا أدركت دار مالك بن النجار ، بركت [مكان باب المسجد الآن] وهو يومئذ مربد تمر لسهل وسهيل ، وهما يتيمان .

وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة عشرة أعوام يجاهد فى سبيل إعلان الإسلام ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، ووقف على عرفات فى حجة الوداع ومعه مائة ألف أو يزيدون ! ..

وتمت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

واجبنا مع رسول الله : صلى الله عليه وسلم[١]

مقـــدمة

دخل رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابته رِعدة من هيبته ، فقال صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّى لَسْتُ بِمَلِكٍ .

إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ »[٢] .

من هـــذا الحديث يتضح أن شخصية رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم كانت قوية جدا ، بحيث تُهاب من غير حاجب ولا حارس كما يفعل الملوك !..

فإذا كان المؤمنون قد كلفوا بالأدب أمام حضرة الرسول العظيم ، فليس ذلك لشىء من ضعف الشخصية أو لإيجاد احترام متكلف من قبل الناس ، وإنما كان هذا التكلف بالأدب لتنظيم العلاقة بين سيد الخلق وأمته ، ولكى يعلم الجميع أن هذا الأدب ليس مِنَّة من صاحبه مهما كان ، ولكنه فريضة عليه وحق لرسول الله على المؤمنين .

إن تواضع الرسول عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام الشديد ، وانفتاح مجلسه للجميع ، وإباحة مخاطبته لكل الناس ، ثم شدة الألفة التى قد ترفع الكلفة بينه وبين الصفوة من أصحابه وغير ذلك ، استدعى تنظيم الصلة برســول الله صلى الله عليه وسلم ، وإرشاد المسلمين إلى الآداب التى عليهم أن يُراعوها معه .

---

(١) عن مكتبة الإمام ـ ٣ ـ بتصرف ط ١٩٦٩

(٢) اللحم المجفف وكان أكل المساكين .

* ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

روى البخارى فى صحيحه عن ابن الزبير ، قال : قدم ركب من تميم على النبي صلى الله عليه وسلم . فقال أبو بكر : أمِّر القعقاع ابن معبد . وقال عمر : بل أمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلّا خلافى ! فقال عمر : ما أردت خلافك .

فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما .. فنزل فى ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [(١)] .

ومعنى ذلك أن الله أمر المؤمنين أن لا يسرعوا فى الأشياء قبله ، بل يكونوا تبعا له فى جميع الأمور . فهذه الآية تدل على أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهى ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى هو ويأذن هو عليه الصلاة والسلام .

وهذا الحكم باق إلى يوم القيامة ، سواء كان التقدم حقيقة كما كان فى حياته ، أو معنويا كالتقدم بين يدى سنته الصحيحة التى لا مُعارض لها ، ولا راجح عليها ، بعد مماته صلى الله عليه وسلم .

فعن أناس من أهل حمص ، من أصحاب معاذ بن جبل ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن قال له : « كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضى بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ » قال : فسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « فإن لم تجد فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فى كتاب الله ؟ » قال : أجتهد رأيى ولا آلو .

(١) البخارى : ج ٦ ص ١٧٢ ، ط . الشعب .

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله ، لما يرضى رسولَ الله ! »[١]

فنحن مطالبون أن لا نتقدم سُنّته فى أى أمر من أمورنا أو سلوك من سلوكنا ، ومكلفون كذلك أن لا نخالفه فى حكم صدر منه فى أى قضية شجرت بيننا .

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[٢] .

وهذا الحكم خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم ...

* * *

* ﴿ ... لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ... ﴾ .

ومن الآداب التى كلف بها المؤمنون فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : خفضُ الصوت ، وعدم الجهر له بالقول كالمعتاد بين الناس بعضهم مع بعض .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[٣] .

---

(١) أبو داود : جـ ٢ ص ٢٧٢ ، وأحمد والترمذى . (٢) النساء : ٥٦٥

(٣) الحجرات : ٢

وحين نزلت هذه الآية خاف بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون أصواتهم قد ارتفعت أمام الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحد الذى يحبط أعمالهم .

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلمُ لك علمه .. فأتاه فوجده جالساً فى بيته مُنكِّسا رأسَه . فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌّ !.. كان يرفعُ صوته فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد حبط عمله وهو من أهل النار !..

فأتى الرجلُ النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبره أنه قال كذا وكذا ... فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة - فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل جنته[1] » .

وجاء فى رواية جرير :

قال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك يا ثابت ؟

فقال رضى الله عنه :

أنا صَيِّيت .. وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فىَّ :

« ... لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ... » الآية .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا ، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا ، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ ؟ ! »

فقال : رضيتُ ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أرفع صوتى أبدا على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

---

(١) البخارى : جـ ٦ ص ١٧١ (٢) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ٢٧

يقول أنس بن مالك : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة !.. فلما كان يوم اليمامة ، كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس وقد تحنط ولبس كفنه ، فقال : بئسما تعوّدون أقرانكم .. فقاتلهم حتى قتل ، رضي الله عنه[(١)] .

قال العلماء : وحكم التأدب بخفض الصوت في مواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم يسري كذلك أمام قبره الشريف ، فيكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم كما كان يكره في حياته .

روى أن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما !..

فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ! .

ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف .

فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما[(٢)] .

* * *

* ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

كان من طبيعة العرب مناداة الشخص من بيته في أي وقت من ليل أو نهار . وكانوا أيضاً يتنادون من الأماكن البعيدة في الخلاء ، أو من خلف البيوت ، وخاصة الأعراب منهم .. وهكذا فعل وفد تميم حينما نادوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من خلف بيوت أزواجه وقت قيلولته ، فقالوا : يا محمد ، يا محمد .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل .

(٢) رواه البزاز ، ونقله ابن كثير في تفسيره : ج ٤ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧

فأنزل الله سبحانه وتعالى آية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[1] ﴾ .

* * *

* ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ .

كان الصحابة يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أب كل واحد منهم ، وأن منزله هو منزل الجميع ، وخاصة بعد أن نزل قول الله تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ .

وجاء فى بعض القراءات : وهو أب لهم[2] .

فإذا كانت زوجاته أمهاتهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لهم ، فبداهة تكون بيوته مباحة لهم . فكانوا إذا دخلوا عنده جلسوا وأكلوا وتحدثوا وأطالوا ، ولا بأس عليهم .. غير أنهم نسوا أن الرسول ﷺ بشر مثلهم ، وأن له حق الراحة فى بيته وحق الائتناس بأهله ، ووجود أى صحابى فى البيت يصادر هذه الحقوق .

ولذلك ورد عن أنس بن مالك قال : أعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض نسائه ، فصنعت أم سليم (أم أنس) حَيْسا (طعاما) ثم جعلته فى تَوْر (إناء) فقالت : اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرئه منى السلام ، وأخبره أن هذا منى له قليل .

---

(١) الحجرات : ٤ ، ٥ (٢) وهى قراءة شاذة بالزيادة .

قال أنس : والناس يومئذ فى جهد ، فجئت به ، فقلت :

يا رسول الله ، بعثت بهذا أم سليم إليك وهى تقرئك السلام ، وتقول : أخبره أن هذا منى له قليل

فنظر إليه صلى الله عليه وسلم ثم قال : « ضعه » .

فوضعه فى ناحية البيت . .

ثم قال ﷺ : « اذهب ، فادع لى فلانا وفلانا » . .

فسمى رجالا كثيرين ، وقال ﷺ : « ومن لقيت من المسلمين » .

فدعوت من قال لى ومن لقيت من المسلمين . فجئت والبيت والصُّفَّة والحجرة ملأى من الناس ، فقلت : يا أبا عثمان كم كانوا ؟ فقال : كانوا زهاء ثلاثمائة .

قال أنس : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جئ به » فجئت به إليه ، فوضع يده عليه ودعا وقال ما شاء الله . .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « ليتحلق عشرة عشرة ، وليسموا ، وليأكل كل إنسان مما يليه . »

فجعلوا يسمون ويأكلون ، حتى أكلوا كلهم . فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارفعه » . قال : فجئت فأخذت التَّوْر فنظرت فيه ، فما أدرى : أهو حين وضعته أكثر ، أم حين أخذته ؟ !

قال : وتخلف رجال يتحدثون فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم التى دخل بها معه مولية وجهها إلى الحائط ، فأطالوا الحديث فشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أشد الناس حياء ، ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزا .

فقـــام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم على حجره وعلى نسائه .. فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ، ابتدروا الباب فخرجوا ..

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أرخى الستار ودخل البيت وأنا في الحجرة ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته يسيرا .. وأنزل الله عليه القرآن ، فخرج وهو يتلو هذه الآية (١) :

﴿ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ، وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَٱسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (٢) ﴾ .

واتضح للمؤمنين أن زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام أمهات لهم من حيث الاحترام وتحريم النكاح فقط ، أما ما بعد ذلك من حجاب وستر ، فقد ضرب الإسلام بذلك حجابا كثيفا بينهن وبين الناس .

---

(١) ابن أبي حاتم ، نقله عنه ابن كثير : جـ ٣ ص ٥٠٤ — والبخاري : جـ ٦ ص ١٤٩ ، ط الشعب . (٢) الأحزاب : ٥٣

وفى هذه الآية من الآداب :

١ — عدم دخول بيوت النبى ﷺ ، إلا أن يأذن هو .

٢ — الانصراف من البيوت عقب الأكل والإطعام .

٣ — عدم الاستئناس بالأحاديث داخل بيوته ﷺ .

٤ — إذا سُئِلَ أزواجه ﷺ متاعا ، فمن خلف الحجاب .

٥ — تحريم نكاح أزواجه ﷺ من بعده .

والأخيرتان من خصوصياته صلى الله عليه وسلم .

* * *

* ﴿ ... لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا ... ﴾ :

لم يألف العرب مخاطبة الأنبياء ، بل ولم يدركوا كيف يخاطَبون ، وكان يهود يسكنون فى المدينة وقريبا منها . وهؤلاء[1] بعث الله منهم عشرات الرسل ، وجعل فيهم كثيرا من الأنبياء ، وهم مع ذلك ينتسبون إلى كتاب موسى : التوراة . من ذلك نرى أن بعض الصحابة كانوا يظنون أن هؤلاء إذا خاطبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما يخاطبونه على نمط ما كانت تخاطب به رسلهم وأنبياؤهم .. وكان الصحابة يحسنون بهؤلاء المضلين الضالين الظنون . من ذلك ما روى أن رجلا من يهود بنى قينقاع يدعى رفاعة بن زيد ، كان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا لقيه وكلمه قال : أرْعِنِى سمعك .

وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفخم بهذا ، فكان ناس منهم يقولون : اسمع غير مسمع — غير صاغر — وهى كالتى فى سورة النساء .. فأوحى الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا : راعنا .

---

(١) أى طائفة اليهود عموما .

ونزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

فنهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم بحسن قصدهم ، وذلك لأن اليهود كانوا يعنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدون من النقيض . فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا ، يقولون : راعنا .. وَيُوَرُّون بالرُّعُونة ، كما قال الله تعالى فى سورة النساء :

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ، وَرَاعِنَا ، لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ .. ﴾ (٢) .

وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولون : السام عليكم ــ والسام هو الموت . ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ : وعليكم (٣) .

وهذا الأدب خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم .

* * *

* ﴿ ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ :

من الطبيعى أن المؤمنين يسألون رسولهم صلى الله عليه وسلم عن كل ما يختلج فى صدورهم . . هذا لأن الشرع جديد عليهم ، وهم لا يأخذون ولا يعلمون إلا من مصدر واحد ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) البقرة : ١٠٤ - (٢) النساء : ٤٦ (٣) ابن كثير : جـ ١ ص ١٤٨

ولكن الله أدّب المؤمنين بأن لا يتسرعوا فى السؤال ؛ بل يصبروا حتى يحدثهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشرائع والأحكام .

فقال تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ[1] . ﴾

فنهاهم فى هذه الآية عن كثرة سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها .. كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ، عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ[2] ﴾ .

وجاء فى صحيح مسلم :

« ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ! ..
فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ..
وَإِنْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ ، فَانْتَهُوا[3] . »

ولذلك يقول أنس بن مالك رضى الله عنه :

نُهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء .. فكان يعجبنا أن يأتىَ الرجل من أهل البادية فيسأله ، ونحن نسمع[4] .

---

(١) البقرة : ١٠٨ (٢) المائدة : ١٠١

(٣) و (٤) أبو يعلى ، نقله عنه ابن كثير : ج ١ ص ١٥٣

ويقول البراء بن عازب : إنْ كان ليأْتى علىّ السنة ، أرجو أن أسأل رســـول الله صلى الله عليه وسلم عن الشىء ؛ فأتهيَّب منه ، وإنْ كنا لنتمنى الأعراب(١) .

هده آداب نزل بها القرآن الكريم ، يأمر الصحابة رضوان الله عليهم جميعا بأن يعملوا بها . وهاهم الصحابة يمتثلونها أشد الامتثال ، وقد يكون منهم من يحبس سؤاله فى نفســه ولا يُبديه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، طاعة لله ، وهيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ! .. ورضى الله عنهم ..

وهذا الحــكم عام لجميــع الأمة ، علما بأن المراد من النهى هو السؤال عن الأمور التى تُثير الفتن وتُلقى الشُّبَه فى قلوب الناس ، أو تُحرج وتؤذى شعور أحـــد من الناس بغــير داع لذلك . أما السؤال للتعلم ، فمطلوب شرعا ، وقد يكون واجبا .

* * *

* ﴿ ... وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ، لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ... ﴾ .

للإنسان مصالحه الخاصة ، مثل : مزاولة أمور معيشته من صناعة وتجارة ، ورعاية أولاده وأسرته ، وجميع ما يتــكسب منه .

وقد جعل الشارع الحرية الكاملة للشخص فى الهيمنة عليها وتوجيهها على حسب ما تقتضيه مصلحته فى دائرة الإســلام . وللأمة مصلحتها العامة كاجتماع الأعياد ، وخطب الجمعة ، وما شاكل ذلك ، فلهده سَمْتُها الخاص بالنسبة لرسول الله ﷺ فلم يكن لأى صحابى أن ينصرف عنها إلا بعد أخذ الإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) المصدر السابق .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ . وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ . إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . (النور : ٦٢)

يقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

وهذا أيضا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه . فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما إذا كانوا فى أمر جامع مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة ، أو عيد ، أو جماعة ، أو اجتماع فى مشورة ، ونحو ذلك ..

أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه والحالة هذه ، إلا بعد استئذانه ومشاورته وإلقاء السلام .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا ٱنْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى ٱلْمَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ .. فَلَيْسَتِ ٱلْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ ٱلْآخِرَةِ »(١) .

وهذا الحكم عام فى كل اجتماع .

* * *

* ﴿ .. لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ... ﴾ .

إذا ما أراد الإنسان أن يدعو آخر ويناديه ، فإما أن يناديه باسمه المجرد أو بكنيته .. وهذه معتادة بين الناس بعضهم مع بعض .

---

(١) رواه أحمد والترمذى والنسائى (وحسنه) ابن كثير : جـ ٣ ص ٣٠٦

وكان الأعراب إذا دعَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا « محمد » .. بالاسم المجرد ، أو : يا أبا القاسم بالكنية .

ولكن الله أدّب المؤمنين أيضاً فى أسلوب النداء والدعوة ، كما أدّبهم فى طريقة التخاطب والتحدث .. فقال تعالى :

﴿ .. لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا[1] ﴾ .

فعن ابن عباس أنهم كانوا يقولون : يا محمد . يا أبا القاسم .

فنهاهم الله عز وجل عن ذلك ، إعظاما لنبيه صلى الله عليه وسلم .

قال : تقولوا يا نبىّ الله .. ويا رسول الله .

وقال قتادة :

أمر الله أن يُهاب نبيه وأن يُبجَّلَ وأن يُعظم وأن يُسَوَّدَ[2] .

وهذا حكم خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

* ﴿ ... اِسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ... ﴾ :

وأخيرًا فلقد بلغت درجة تأديب الله للمؤمنين مع رسوله صلى الله عليه وسلم : أن كلفهم بالاستجابة له على كل أحوالهم ، حتى فى أثناء الصلاة .

وذلك لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اُسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ... ﴾[3] .

روى البخارى بسنده عن سعيد بن المعلى قال : كنت أصلى فى المسجد .. فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فلم أجبه ـ أو قال :

---

(١) النور : ٦٣ (٢) ابن كثير : جـ٣ ص ٣٠٦

(٣) الأنفال : ٢٤

لم آته ـ حتى صليت .. ثم أتيته فقلت : يا رسول الله . إنى كنت أصلى .. فقال : أَلَمْ يَقُلِ اللهُ ﴿ اِسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ .

لذلك قال بعض العلماء : إنه صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا شخصاً وهو يصلى ، يجيبه ويترك الصلاة استجابة له ، وأن الصلاة لا تبطل بإجابته ، بل له أن يبنى على ما كان صلى ويتم[1] .

وهذه خصوصية له صلى الله عليه وسلم ..

* * *

* وُجُوبُ مَحَبَّتِهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّم :

إن ما تنعم به البشرية من أنوار الهداية ودلائل الحق وأبواب الخير ونصاعة العقيدة : يرجع الفضل فيه بعد الله، إلى خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين .

ولا شك أن القلوب التي اهتدت إلى ربها ، وملأ نور الإيمان جوانبها، تدين بحب الله ورسوله ، اعترافاً بفضله صلى الله عليه وسلم فى هداية الخلق إلى صراط الله المستقيم .. ولقد فرض الإسلام حب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بقول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[2] ﴾ .

---

(١) تفسير المنار : جـ ٩ ص ٥٨٣ (٢) سورة التوبة : ٢٤

قال القاضي عياض عقب إيراد هذه الآية : فكفى بهذا حضاً وتنبيها ودلالة وحجة على إلزام محبته ، وفرضها ، وعظم خطرها ، واستحقاقه لها صلى الله عليه وسلم ، إذ قرّع الله تعالى من كان ماله وأهله وولده أحبَّ إليه من الله ورسوله ، وأوعدهم بقوله تعالى :

﴿ ... فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ . . ﴾ .

ثم فسّقهم بتمام الآية ، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله [1] .

فلا يصدق إيمان المؤمن ، ولا يذوق حلاوته ويجد بين جوانحه روعته ، حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما !..

فعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الْإِيمانِ :

أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُما !..

وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ !..

وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ ، كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ ! . »[2] .

(متفق عليه) .

وعن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب .. فقال له عمر : يا رسول الله ..! لأنت أحبُّ إلىّ من كل شىء إلا من نفسى .

فقال النبي صَلَّى اللهُ عليْهِ وَسَلَّمَ : « لا ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ !.. حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » .

---

(١) كتاب الشفاء جـ ٢ ص ١٥ (٢) رياض الصالحين ص ١٧٨

فقال عمر : واللهِ لأنتَ أحَبُّ إلىَّ من نفسى .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الآن يا عمر . . »[1] .

يعنى الآن صدق إيمانك . فكل مسلم فى قلبه محبة الله ورسوله ، إذ لا يدخل الإسلام إلا بها ، ولكن الناس متفاوتون فى محبته صلى الله عليه وسلم ، بحسب استحضار ما وصل إليهم من جهته من وُجوه النفع الشامل لخير الدارين ، وهو أعظم وجوه الانتفاعات .

ولا شك أن حظ الصحابة رضى الله عنهم فى المعنى أتم ، لأن هذا ثمرة المعرفة ، وهم بها أعلم من غيرهم ... قال عمرو بن العاص : ما كان أحدٌ أحبَّ إلىَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أجلَّ فى عينى منهُ ! .. وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له !.. حتى لو قيل لى : صِفْهُ .. ما استطعت أن أصفه[2] .

وقال علىُّ بن أبى طالب ، وقد سُئل : كيف كان حبُّكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كان رسولُ الله أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ، وأحب إلينا من الماء البارد على الظماء .

وروى البيهقى ، عن عروة قال : لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة (وكان قد أسر يوم الرجيع) من الحرم ليقتلوه . قال له أبو سفيان ابن حرب (وهو يومئذ مشرك) : أنشدك بالله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك ، نضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ !

فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا فى مكانه الذى هو فيه مقيم تصيبه الشوكة (أى أقل شىء من الأذى) ، وإنى جالس فى أهلى (سالم من الأذى) !

---

(١) رواه البخارى .　　(٢) أخرجه مسلم .

فقال أبو سفيان : ما رأيت أحدا من الناس يُحب أحــدا ، كحب أصحاب محمدٍ محمدًا (١) .

وفى القرطبى : إن ثَوْبان مَوْلَى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ـ وكان شديد الحب له ، قليل الصبر عنه ـ أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يزوره ، فوجده قد تغـير لونه ، ونحل جسمه ، يعرف فى وجهه الحزن .. فقال له : « يا ثوبان . ما غيَّر لونك ؟ »

فقال : يا رسول الله . ما بى ضرّ ولا وجع ، غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك !.. ثم ذكرت الآخرة ! وأخاف أن لا أراك هناك ، لأنى عرفت أنك تُرفع مع النبيين !.. وإنى إن دخلت الجنـــة كنت فى منزلة هى أدنى من منزلتك !.. وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا !

فأنزل اللهُ قوله :

﴿ وَمَن يُطِـعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا . ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾(٢) .

وذكر ابن ظفر : أن عبد الله بن زيد رضى الله عنه كان يعمل فى جنة (بستان) له . فأتاه ابنه فأخبره أن النبى صـــلى الله عليه وسلم توفى ! . فقال عبد الله :

اللهم أذهب بصرى ، حتى لا أرى بعد حبيبى : محمد أحدا !..

(واستجاب الله لدعوته) فكُفَّ بصره (٣) .

---

(١) المواهب اللدنية للزرقانى جـ ٦ ص ٢٩٠ .

(٢) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ . (٣) المواهب جـ ٦ ص ٢٩٢ .

* * *

* وُجُوبُ طاعَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ والاقْتِداء بِهِ :

وإنما فرض الإسلام محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمة ـ ومعنى المحبة : الطاعة ـ لتكون شريعته وسنته هى الطريق التى تختارها القلوب عقيدة ، وتنطلق بها الأعضاء عملا ، وليترسَّم كل مسلم طريقة حبيبه : سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ويحسن به الأسوة ، ويكون فى ضميره وواقع عمله نعم القدوة .

يقُولُ تَعالَى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾[١].

وهذه هى الثمار الطبيعية للمحبة ، والطريق السوىّ للمحبين الذين يظفرون بصحبته يوم القيامة . قال صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا عَلَى أَعْمالِهِمْ ، حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ » .

وروى العسكرى عن الحسن : لا تغتر يا ابن آدم بقوله (أى بقول الرسول صلى الله عليه وسلم) : « أنت مع من أحببت .. »

فمن أحب قوما اتبع آثارهم .. واعلم أنك لن تلحق بالأخيار حتى تتبع آثارهم وتأخذ فى الاقتداء بسنتهم ، وتُصبح وتُمسى على مناهجهم ، حرصاً على أن تكون منهم[٢] . لقد قرن الله طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بطاعته ، بل جعلها هى طاعته تبارك وتعالى .

يقول سُبْحانَهُ : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ .. ﴾[٣].

---

(١) سورة الأحزاب : ٢١ (٢) المواهب اللدنية جـ ٦ ص ٢٤٢

(٣) سورة النساء : ٨٠

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

«مَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ[١]» .

وذلك أمر طبيعى، لأنه عليه الصلاة والسلام يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ وَيُعَلِّمُ أُمَّتَهُ بِما يُوحَى إِلَيْهِ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى • إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى[٢] ﴾ .

ومن هنا يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا[٣] ... ﴾ .

فمقتضى الإيمان بالله : ربًّا ، وبالإسلام : دينًا ، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : رسولا — أن يُطاع الرسول الأمين ؛ وإلا فإن الإيمان بلا إذعان وخُضوع : كَلَا إيمان ! . .

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[٤] ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٥] ﴾ .

يقول الصِّدِّيق : أبو بكر ، رضى الله عنه :

لستُ تاركًا شيئًا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به . إنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ[٦] .

(١) المواهب : ج ٦ ص ٢٤٠
(٢) سورة النجم : ٣ ، ٤
(٣) سورة الحشر : ٧
(٤) سورة النساء : ٦٥
(٥) سورة النور : ٦٣
(٦) الشفاء : ج ٢ ص ١٤

* * *

* وُجُوب نُصْرَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

ومن لوازم المحبة الصادقة الإيجابية المستلزمة للطاعة وكمال الأُسْوَة : أن يبذل المحب ذات نفسه فداء لإمامه وقائده صلى الله عليه وسلم وحماية للمبادئ التى خالطت قلبه وملكت مسالك فكره .

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَفْسِهِ ...[1] ﴾ .

إن الذين يستجيبون لله ولرسوله ، ويتبعون هديه ، ويحيون فى أنوار رسالته ، وينصرونه ويرفعون بالحقِّ رايته : هم أهل الفلاح فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[2] ﴾ .

* * *

---

(١) سورة التوبة : ١٢٠ (٢) سورة الأعراف : ١٥٧

ما اختص الله به رسوله : صلى الله عليه وسلم ، دون غيره من الأنبياء والمرسلين .

الله سبحانه وتعالى يصطفي[1] من الملائكة رسلا ومن الناس ، ليكونوا وسائل تبليغ لدينه ، ووسائط رحمة بينه تعالى وبين عباده .

واختار سبحانه من الرسل جماعة ، تحملوا من الأعباء والمشاق ما لم يتحمل غيرهم من المرسلين ، وهم أولو العزم ، الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ ... فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ[2] ... ﴾ .

وقد ذكر الله أسماءهم فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا[3] ﴾ .

وقد اختصّ الله سيدنا : محمداً ، صلى الله عليه وسلم بأمور لم ينلها غيره من الرسل ، زيادة تكريم له ولأمته معه ..

ولذلك قال تعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...[4] ﴾ .

---

(١) يختار . (٢) الأحقاف : ٣٥

(٣) الأحزاب : ٧ (٤) آل عمران : ١١٠

وإذا أردنا إحصاء ما اختص الله به رسوله : محمداً صلى الله عليه وسلم دون غيره من الأنبياء والمرسلين ، فإن القلم يعجز عن استقصاء خصوصياته وفضائله عليه الصلاة والسلام !..

ولكن حسبنا هنا أن نذكر قطرة من بحر فياض ، مصدّرين بحثنا بالحديث الصحيح الذى ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه أعطى خمساً لم يُعطهن أحدٌ قبله : ثم نتبعه ببعض أحاديث ، محاولين ذكر بعض ما اختص به لا كله !..

فعن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنهما ، قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أُعْطِيتُ خَمْسًا ، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي :

نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ،

وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ،

فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ !..

وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي !..

وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً !.. وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ (١) !.. »

وهذا الحديث ليس للحصر : فليس معناه أنه صلى الله عليه وسلم أعطى هذه الخمس فقط – كما سترى – ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يذكر فى كل مقام ما يناسبه من الخصوصيات .

---

(١) متفق عليه ، شرح الكرمانى على صحيح البخارى جـ ٤ ص ٩٧

وإليك تفصيل بعض ما اختص به صلى الله عليه وسلم .

١ — « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » .

الغرض من هذا التعبير : أن أعداءه صلى الله عليه وسلم كانوا يرهبونه ويخافونه مع بعدهم عنه : بحيث لو أراد حربهم لقطع المسافة التى هى بينه وبينهم فى شهر بسير الإبل . وقد تدرك الحكمة النبوية فى تحديد الشهر إذا علمت : أن الدولتين الكبريين اللتين كان يخشى حينئذ بأسهما ويخاف منهما . وهما : الفرس بالعراق ، والروم بالشام ، لم تكن تزيد المسافة بينه صلى الله عليه وسلم وبين أى منهما أكثر مما ذكر ، وقد كانتا تعلمان خطورته صلى الله عليه وسلم عليهما ، خصوصاً بعد أن دعاهما مع غيرهما إلى الإسلام ، وبعد أن انتصر على جميع الجزيرة العربية ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ! .

ومع ذلك لم تحاول أى منهما أن تحاربه أو تنال من دولته منالا !. . وما ذلك إلا بسبب ما ألقى الله فى قلوبهما من رعب ! .

فإن قيل : فلماذا حاربه إذاً اليهود وكفار قريش ولم يستسلموا له ؟ فالجواب : أنهم ما حاربوه إلا خوفاً منه : أن يمتلك ديارهم وأموالهم وأنفسهم ، بعد أن أذن له بالحرب ، وعقد له لواء النصر أينما توجه !.. فالرعب إذاً من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وخوفهم على مناصبهم وزعاماتهم ، وشعورهم بالحرج الذى وقعوا فيه بسبب ما أوقعوه بالنبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من إيذاء : كل ذلك حملهم على أن يكابروا بحمية الجاهلية وادعاء القوة والمنعة ، وما هم منهما فى شىء ؛ لأن الرعب كان يزلزل قلوبهم ويفرى أكبادهم !..

٢ ، ٣ — « وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ... » :

كانت الأمم السابقة ، لا تصلى إلا فى أماكن العبادة : كالكنائس والبيع ، ولا تتطهر إلا بالماء .. أما أمتنا : أمة رسول الله ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ميزها الله بخصوصيتين :

١ — أداء الصلاة فى أى مكان من الأرض .

٢ — والتطهر بجنس الأرض عند فقد الماء :

﴿ ... فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا .. ﴾

وقال الحافظ بن حجر فى الفتح : ويؤيده رواية عمرو بن شعيب بلفظ :

« وَكَانَ مَنْ قَبْلِي ، إِنَّما يُصَلُّونَ فِي كَنائِسِهِمْ » .

وروى البزار عن ابن عباس رضى الله عنهما :

« وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِياءِ يُصَلِّي ، حَتَّى يَبْلُغَ مِحْرابَهُ[1] »

٤ — « وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ » :

الغنائم : هى الأسلاب التى تؤخذ من الكفار عقب الجهاد والانتصار . وكانت محرمة على الأنبياء ، وعلى المجاهدين معهم فى الأمم السابقة ، وكانت تأتى النار لإحراقها ، فلا يستفيد منها الأعداء ، ولا تعود أدنى فائدة منها على المجاهدين .

فلما جاء الإسلام : منح الله نبينا صلى الله عليه وسلم ، حق الاستفادة بالغنيمة ، وأنزل آيات تفصل قسمتها على المجاهدين .

---

(١) نيل الأوطار : جـ ٣ ص ٢٦٠

جاء فى صحيح البخارى :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ : لا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ[1] ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا[2] وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا ، وَلا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا ، وَلا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ (بفتح الخاء وكسر اللام) وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلادَتَهَا ، فَغَزَا ، فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ : إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ ، وَأَنَا مَأْمُورٌ . . اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا . فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ !! فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ ، فَجَاءَتْ : يَعْنِي النَّارَ ، لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا . . فَقَالَ : إِنَّ فِيكُمْ غُلُولاً : فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ !! فَقَالَ : فِيكُمُ الْغُلُولُ ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ . فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ بِيَدِهِ .. فَقَالَ : فِيكُمُ الْغُلُولُ !! فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ الْبَقَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ ، فَوَضَعُوهَا ، فَجَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا . .

ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْغَنَائِمَ :

رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا[3] » .

---

(١) عقد عليها . (٢) يدخل بها .

(٣) الكرمانى على البخارى : جـ ١٣ ص ٩٥

٤ — « وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً » :

وهذه خاصية أخرى ، وهى من الخصائص التى فضل الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ، وذلك لشمول دعوته : الأسود والأحمر ، والعربى والعجمى ، والإنس والجن . قال الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(١) ﴾ . وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا(٢) ﴾ .

٥ — « وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ » :

والمراد بها : الشفاعة العظمى ؛ لا شفاعة خاصة ، فإن الشفاعة الخاصة : أعطيها جميع الأنبياء لأممهم ، كما أعطيها العلماء العاملون والصدّيقون والشهداء . أما الشفاعة العظمى ، وهى الشفاعة عند الله تعالى من أجل جميع الأمم ، فلم يُعطها غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾(٣) .

قال الإمام ابن كثير : أى افعل الذى أمرتك به ، لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمدك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذى يقومه محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

---

(١) سبأ : ٢٨ (٢) الفرقان : ١ (٣) الإسراء : ٧٩

وقال ابن عباس : هذا المقام المحمود : مقام الشفاعة ، وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد ، وقاله الحسن البصرى[1] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ الْقِيامَةِ ، حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ ! . فَبَيْنَا هُمْ كَذٰلِكَ : اسْتَغاثُوا بِآدَمَ فَيَقُولُ : لَسْتُ بِصاحِبِ ذٰلِكَ ! . ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُولُ كَذٰلِكَ ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الْخَلْقِ ، فَيَمْشِى حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلَقَةِ بابِ الْجَنَّةِ ! فَيَوْمَئِذٍ : يَبْعَثُهُ اللهُ مَقامًا مَحْمُودًا : يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ[2] » .

ونذكر لك بعض ما اختص به صلى الله عليه وسلم ، مما جاء فى غير الحديث السابق .

٦ — « أُعْطِيتُ جَوامِعَ الْكَلِمِ » :

قال عليه — وآله وصحبه — الصلاة والسلام :

« أُعْطِيتُ جَوامِعَ الْكَلِمِ ، وَاخْتُصِرَ لِيَ الْكَلامُ اخْتِصارًا » .

(ومعنى ذلك : أنه صلى الله عليه وسلم : أنعم الله عليه بأن ينطق بقليل الكلام الذى يحمل كثير المعانى) .

وهذه الخصوصية : تتمثل فى كل أحاديثه وكلماته ، لذلك نرى شراح الحديث يستخلصون من العبارة الواحدة أحكامًا وحِكمًا وعبرًا كثيرة ، وما ذكروا إلا القليل من مكنون الحِكم وجواهر الكلم .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٢ ص ٥٥ .

(٢) أخرجه البخارى وابن جرير — الدين الخالص : جـ ١ ص ١٠١

وإليك أمثلة موجزة من أقواله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّما الْأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ » ، « الْيَـدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » ، « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » ، « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

٧ — وَخُتِمَتْ بِهِ النُّبُوَّةُ وَالرِّسالَةُ :

لما كانت كل الرسالات قبل الإسلام خاصة لفئة معينة من الناس ، وكان الإســـلام عامًّا للبشر كلهم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم . فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد اصطفاه ربه ليكون خاتمًا للمرسلين كلهم ، والنبيين جميعهم .

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ ، وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[1].

ويقول الإمام ابن كثير : هذه الآية نصّ فى أنه لا نبيّ بعده ، وإذا كان لا نبيّ بعده ، فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى ، لأن مقام الرسالة أخصّ من مقام النبوة . فإن كل رسول نبي ولا ينعكس[2] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِياءِ قَبْلِي ،

كَمَثَلِ رجُلٍ بَنَى بَيْتًا ؛ فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ ،

إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ !..

---

(١) الأحزاب : ٤٠ (٢) ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٣

فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَتَعَجَّبُونَ لَهُ ،
وَيَقُولُونَ : هَلَّا وُضِعَتْ هٰذِهِ اللَّبِنَةُ ؟
فَأَنَا تِلْكَ اللَّبِنَةُ !.. وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ !.. »[1] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ ،
فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ »[2] .

٨ — وَهُوَ أَفْضَلُ الْمُرْسَلِينَ عِنْدَ اللهِ :

وإذا كان رسول الله ﷺ خاتم النبيين ، ورحمة للعالمين ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم ، فقد فضله ربنا على جميع المرسلين ، وكل النبيين . ومبدأ تفضيل بعض الرسل على بعض مقرر فى كتاب الله تعالى :
قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾[3] .
وقال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ . . ﴾[4] .
وقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾[5] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم (الفتح الربانى : جـ ٥ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨)
(٢) رواه أحمد والترمذى والحاكم بإسناد صحيح (الزرقانى على المواهب : جـ ٥ ص ٢٦٧)
(٣) البقرة : ٢٥٣
(٤) الإسراء : ٥٥
(٥) آل عمران : ١١٠

يقول ابن كثير : وإنما حازت هـذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه . فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعطَهُ نبي قبله ، ولا رسول من الرسل(١) .

وعن أبي سعيد الخدري [سعد بن مالك] ، قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَلا فَخْرَ ا..

وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ ، وَلا فَخْرَ ا..

وَما مِنْ نَبِيٍّ : آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي ا..

وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ ، وَلا فَخْرَ ا..

وَأَنَا أَوَّلُ شافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ ، وَلا فَخْرَ ا.. »(٢)

* * *

* مُحَمَّدٌ الرَّبَّانِيُّ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ربّانيًا في كل شيء :

في حركاته وسكناته ، في عبادته ومعاملاته ، في أقواله وأفعاله ، وفي أحواله كلها . فكان دائم المراقبة لربه والذكر له ، والعمل على مرضاته . وكان نطقه ذكرًا ، وصمته فكرًا ، وحديثه عبرًا ا.. ملك عليه حب ربه والخوف منه قلبه ومشاعره ، وصارت حواسه كلها في خدمة العليّ الأعلى ا . فلله : رَبِّهِ ما يعمل ، ولله ما يترك ! .

عبدَ اللهَ حتى تورّمت قدماه ا.. فلما سُئل عن السبب ، قال : « أفلا أكون عبدًا شكورا ؟ ! »

---

(١) ابن كثير جـ ١ ص ٣٩١ (٢) الزرقاني : جـ ٨ ص ٣٥٢

وخرج من الدنيا وليس فى بيته شىء ، مع كثرة ما فتح له من الدنيا وما ألقى بين يديه من الغنائم .

وإليك بعض تفصيل ما أجمل :

* حُبُّهُ ـ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِرَبِّهِ :

لم يكن حبه صلى الله عليه وسلم لشىء فى الحياة ـ أيًّا مًّا كان ـ يعدل حبه لله !.. وما أحبّ شيئًا ولا أحدًا ، إلا لأن الله يحبه !.. وما أبغض شيئًا ولا أحدًا ، إلا لبغض الله إياه !.. ومع ذلك كان عليه الصلاة والسلام يطلب من الله ـ جل وعلا ـ أن يرزقه المزيد من هذا الحب !.. وكان يهتف داعيًا ربه ـ عز وجل ـ فيقول :

« اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ ،

وَحُبَّ ما يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ ! . . ،

وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْماءِ الْبارِدِ(١) » .

وكان كثيرًا ما يقول فى دعائه أيضًا : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الرِّضا بَعْدَ الْقَضاءِ ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقائِكَ(٢) ... » .

* تَعْظِيمُهُ ﷺ لِلّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ :

ولعل حب سيدنا محمد لربه ـ عز وجل ـ هو السر أيضًا فى أنه كان يعظم كل ما يتصل بالله وحده . فإذا واجهه أحد بأذى ، فإن عفوه وصفحه يسبقان غضبه وانتقامه .

---

(١) رواه أحمد ـ إحياء علوم الدين : ج ٤ ص ٣١٥

(٢) إحياء علوم الدين : ج ٤ ص ٢٨٧

أمّا إذا انْتُهِكَت حُرُمات الله – عز وجل – أو اسْتُبِيحَت محارمُه ، فإنه يغضب لذلك غضباً شديداً ويقوم ينتصر لله ، فلا تستطيع أية قوة أن تثنيه عن عزمه ، أو تحول بينه وبين الانتصار لله .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما ضَرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله !.. وما نِيلَ منه شىء قطُّ فينتقم منه لنفسه ، إلا أن يُنتهك شىء من محارم الله ، فينتقم لله عز وجل[1] .

* خَوْفُهُ ﷺ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ :

ولئن كانت معرفة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الكاملة بالله وصفاته قد دفعته إلى حبه هذا الحب العظيم ، حتى أصبح لا يجد السعادة والاطمئنان إلا فى عبادته وبين يديه ، فإن هذه المعرفة الكاملة بعينها هى التى أورثته جلال الخوف والهيبة من الله سبحانه .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً فترخص[2] فيه .. فبلغ ذلك ناساً من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكرهوه وتنزهوا عنه .. فبلغه ذلك ، فقام خطيباً ، فقال :

« ما بالُ رجالٍ بلغهم عنى أنى ترخَّصت فى أمر .. فكرهوه وتنزهوا عنه ؟! فوالله لأنا أعلمهم بالله ، وأشدّهم له خشية[4] » .

وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفه « أبو هالة » : متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة[5] !..

---

(١) التاج : جـ ٣ ص ٢٥٧ (٢) لم يشدد فيه .

(٣) لم يفعلوه كما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٤) رواه مسلم – التاج : جـ٣ ص ٢٥٧ (٥) الشفا : جـ١ ص ١١٣

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى عاملا من العوامل التى عذبت بها الأمم السابقة امتقع لونه وارتعدت فرائصه خوفاً ووجلا ، ووقف يبتهل إلى الله ويتضرع إليه ويستعيذ به من عذابه !..

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان الرسولُ صلى الله عليه وسلم إذا رأى غيماً أو ريحاً ، عُرف ذلك في وجهه .. فقلت : يا رسول الله . الناس إذا رأوا الغيم ، فرحوا ورجوا أن يكون فيه المطر ، وإذا رأيته أنت عُرف فى وجهك الكراهة ! فقال : « يا عائشة ، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب !.. وقد عُذب قومٌ بالريح ، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا : هذا عارضٌ مُمْطِرُنا[1] » .

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال :

« اللَّهُمَّ لا تَقْتُلْنا بِغَضَبِكَ ،
وَلا تُهْلِكْنا بِعَذابِكَ ، وَعافِنا قَبْلَ ذٰلِكَ[2] » .

هذه الخشية الشديدة كانت تُلازم النبي صلى الله عليه وسلم فى جميع أوقاته وأحواله ، حتى فى أكثر حالاته قُرباً إلى الله عز وجل .

عن عبد الله بن الشِّخِّير ، قال : أتيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقام يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل[3] !..

وعن عوف بن مالك قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فاستاك ، ثم توضأ ، ثم قام يصلى .. فقمت معه ..

فبدأ فاستفتح البقرة ، فلا يمرّ بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ .

---

(١) الوفا : ج ٢ ص ٥٣٨ (٢) المصدر السابق .
(٣) الشفا : ج ١ ص ١١٣ ، والأزيز هو : صوت غليان القدر .

ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول :

« سُبْحانَ ذِى الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْعَظَمَةِ ! »

ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك[١] !..

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

كنت نائمة إلى جنب النبي صلى الله عليه وسلم ، ففقدته من الليل ، فوقعت يدى على قدميه وهو ساجد يقول :

« أَعُوذُ بِرِضاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعافاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ . لا أُحْصِى ثَناءً عَلَيْكَ ! أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ[٢] !.. »

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الخوف من الله عن علم ويقين !.. قال الإمام الغزالى فى الإحياء :

فى غزوة بدر وقف عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة ، لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك ! . »

فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه :

دع عنك مناشدتك ربك ، فإنه وافٍ لك بما وعدك » .

فكان مقام الصِّدِّيق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله . .

وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله ، وهو أتم ، لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ، ومعانى صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر ! وما لأحد من البشر الوقوف على كُنه صفات الله تعالى[٣] اه .

---

(١) المصدر السابق . (٢) رواه الترمذى والنسائى ـ التاج : جـ ٥ ص ١٣٣ (٣) إحياء علوم الدين : جـ ٤ ص ١٦٨

* عِبَادَتُهُ ﷺ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

ومن كمال ربانيته صلى الله عليه وسلم ، وأثر حبه لله ، وخوفه منه ، وتعظيمه له : أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يجد سعادة نفسه وحياة قلبه ونعيم روحه وقرة عينه فى شىء - مثلما يجده فى موقف واحد من مواقف عبادته لله سبحانه وتعالى : يقف بين يدى محبوبه الكريم ، يتضرع إليه ويدعوه ويُناجيه !.. فإذا سجد وأطال السجود ، وإذا خشعت جوارحه واستكانت ، وإذا سمع خفقان قلبه وصوت ضراعته ونشيج بكائه - فذلك كله لأنه فى غمرة شوق جارف وحب عظيم !..

عن عطاء قال : دخلت أنا وعبد الله بن عمر ، وعبيد بن عمير ، على عائشة رضى الله عنها .. فقال ابن عمر : حدثينى بأعجب ما رأيتِ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

فبكت ، ثم قالت : كل أمره كان عجباً !!

أتانى فى ليلتى ، حتى إذا دخل معى فى لحافى ، وألصق جلده بجلدى ، فقال لى : « ياعائشة ، أَتَأْذَنِين لِي فى عِبَادةِ رَبِّي عزَّ وجلَّ ؟ »

فقلت : إنى لأحب قُرْبك وهواك[1] .. قالت : فقام إلى قِرْبة فى البيت ، فلم يكثر صبّ الماء ، ثم قام فقرأ القرآن .

قالت : ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلت حجزته[2] !..

ثم اتكأ على جنبه الأيمن ، ثم وضع يده اليمنى تحت خده ، ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض !..

فجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فوجده يبكى !..

---

(١) تقصد : أحب قربك منى ، وأحب ما تهواه .

(٢) الحجزة : معقد الإزار .

فقال : يا رسول الله !

أتبكى ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ !

فقال : « أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ »

ثم قال عليه الصلاة والسلام :

« وَمالِيَ لا أَبْكِى ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَىَّ اللَّيْلَةَ :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ .. ﴾ .. » الآيات .

ثم قال عليه الصلاة والسلام :

« وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَها وَلَمْ يَتَدَبَّرْها [1] !.. »

وعن عليّ كرم الله وجهه قال : لقد رأيتُنا وما فينا قائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصلى ويبكى ، حتى أصبح [2] !..

وإذا كانت الصلاة ، وهى عماد الدين ـ هى العبادة التى يكون المرء فيها أقرب إلى الله عز وجل من غيرها ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يُحافظ عليها ويُكثر منها ، ويُداوم عليها ، ويجد راحة نفسه واطمئنان قلبه فى إقامتها .

عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« حُبِّبَ إِلَيَّ الطِّيبُ وَالنِّساءُ .

وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ [3] » .

(١) الوفا بأحوال المصطفى جـ ٢ ص ٥٣٩

(٢) يعنى ليلة بدر ـ الوفا بأحوال المصطفى جـ ٢ ص ٥٣٩ .

(٣) رواه الإمام أحمد ـ راجع ابن كثير : جـ ٣ ص ٢٣٨

وكان عليه الصلاة والسلام إذا حضرت الصلاة يقول لمؤذنه بلال :

« قُمْ يا بِلالُ ، فَأَرِحْنا بِالصَّلاةِ[١] » .

كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يحب الله حبًّا جمًّا ، ويحب دائمًا أن يكون بحضرته وبين يديه يدعوه ويُناجيه !.. وعلى قدر حبه لله كانت عبادته عليه الصلاة والسلام ، ولأجل أن حبه لله لا يعدله حب على الإطلاق ، فقد كانت عبادته عليه الصلاة والسلام كذلك ، لا تعدلها عبادة على الإطلاق ، لا كمًّا ولا كيفًا ! . فعن زياد ، قال : سمعت المغيرة يقول : إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم ليصلى حتى ترم قدماه !.. وفي رواية حتى تنفطر[٢] قدماه ، فيقال له[٣] .

فيقول عليه السلام : « أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ »

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمة[٤] ! . وأيكم يُطيق ما كان يُطيق[٥] ؟ !

وفي كيفية هذه العبادة ، تقول رضى الله عنها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى إحدى عشرة ركعة — أى كل ليلة يتهجد بها — كانت تلك صلاته . يسجد السجدة من ذلك : قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية ، قبل أن يرفع رأسه ، ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر ، ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المنادى للصلاة[٦] .

---

(١) رواه الإمام أحمد — ابن كثير : جـ٣ ص ٢٣٨ (٢) تنشقق .

(٣) معمول القول محذوف تقديره : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلم تتعب نفسك هكذا ؟

(٤) ديمة ، تعنى دائمة . (٥) الشفا : جـ ١ ص ١١٢

(٦) الكرماني على البخاري : جـ ٦ ص ١٨٦

ويقول حذيفة رضى الله عنه أيضاً : قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة .. فقرأ السبع الطوال فى سبع ركعات !..

وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ » . ثم قال : « الْحَمْدُ لِلهِ ذِى الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ ، وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ » .

وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه !..

فانصرفت وقد كادت تنكسر رجلاى[1] !..

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكثر طاعة لله على نحو ما قدمنا ، لأنه أكثر الخلق حبًّا لله !.. فهو عليه الصلاة والسلام يقوم بالواجبات والتكاليف قيام مُحِبٍّ مَفْطور ، لا قيام مُكَلَّفٍ مأمور !.. ولهذا كان يأخذ طريقه إلى أشق التكاليف فى ابتهاج وفرح ؛ لأن هذه التكاليف أصبحت شُغله الذى يأنس به ومعه ؛ فهو به ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقه ، ناظر إليه بقلبه !.. فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله ، وبالله ، ومع الله ! . .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال :

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال فى الصوم .

فقال له رجل من المسلمين : إنك تواصل يا رسول الله .

قال : « وَأَيُّكُمْ مِثْلِى ؟ إِنِّى أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّى : يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِى !.. »[2] .

---

(١) ابن كثير : جـ ٣ ص ٥٨٣ (٢) التاج الجامع للأصول : جـ ٥ ص ١٣٩

وللإمام ابن القيم رحمه الله تعليق رائع على هذا الحديث الشريف

قال ابن القيم : وقد اختلف الناس فى هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين : أحدهما : إنه طعام وشراب حِسِّىّ للفم . قالوا : وهذه حقيقة اللفظ . والثانى أن المراد ما يُغذِّيه الله به من المعارف ، وما يُفيض على قلبه من لذة المناجاة ، وما يجده من قُرَّة عينه بقربه وتَنَعُّمه بحبه والشوق إليه ، وتوابع ذلك من الأحوال التى هى غذاء القلوب ، ونعيم الأرواح ، وقرة العين ، وبهجة النفوس .

وقد يقوى هذا الغذاء ، حتى يغنى عن غذاء الأجساد مدة من الزمان ا. ومن له أدنى تجربة وشوق ، يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيوانى ا .

ثم رجّح ابن القيم هذا التخريج الأخير ، وقال : لو كان الطعام والشراب على الحقيقة لما كان صائما ، فضلا عن كونه مواصلا [1]. اهـ .

وما أصدق ما قال فيه الصحابى الجليل . عبد الله بن رواحة ، رضى الله عنه ، حينما وصفه :

وَفِينا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتابَهُ
إِذا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ[2] مِنَ الصُّبْحِ ساطِعُ

أَرانا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنا
بِهِ مُوقِناتٌ : أَنَّ ما قالَ واقِعُ

يَبِيتُ يُجافِي جَنْبُهُ عَنْ فِراشِهِ
إِذا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضاجِعُ[3]

---

(١) زاد المعاد : جـ ١ ص ١٥٤ ، ١٥٥ (٢) يقصد إذا طلع الفجر

(٣) ابن كثير : جـ ٣ ص ٤٥٩

وهكذا نجد أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم قدّر اللهَ حق قدره ، فأحبه أخلص الحب ، وعبده أصدق العبادة !..

ولعل حبه لله عز وجل هو السر فى أنه كان يستسهل الصعب ، ما دام فى سبيل الله عز وجل !..

فعندما خرج إلى الطائف يدعو « ثقيفا » إلى الإسلام ، ردّوا عليه ردًّا قبيحا ، وأغروا به سفهاءهم ؛ فجعلوا يرمونه بالحجارة ، حتى إن رجلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لتدميان !..

فلجأ إلى حائط (بُستان) فاحتمى فيــه !.. فلما اطمأن رفع رأسه إلى السماء ، ضارعا فى شِكاية وألم ، فقال :

« اَللَّهُمَّ إِنِّى أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِى ، وَقِلَّةَ حِيلَتِى ، وَهَوانِى عَلَى النَّاسِ ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ !..

أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّى . إِلَى مَنْ تَكِلُنِى ؟

إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِى ، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِى ؟!

إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَىَّ ، فَلا أُبالِى [1] !.. »

أثارت المحنة أشجانه عليه الصلاة والســلام ، فدعا ربه ومحبوبه جل وعلا بهذا الدعاء الذى يقطع نِياط القلوب ! وفى العبارة الأخيرة : « إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » يظهر حب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لربه ، كما يظهر نور الشمس فى رائعة النهار !.

إنه لا يخشى الصعاب ، ولا يخاف الألم إلا إذا كان تعبيرا عن غضب الله !.. أما إذا لم يكن كذلك فمرحبا بالمتاعب ، ومرحبا بالألم ، ومرحبا بكل ما يكيد به السفهاء ، ما دام ذلك فى سبيل الله وفى سبيل مرضاته !

---

(١) حياة محمد : ص ١٨٧

جملة من أخلاق الرسول
صلى الله عليه وسلم

مقدمة : هل يستطيع بشرٌ كائنًا من كان أن يتمثل خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صنعه ربه على عينه : يحوطه برعايته ، ويشمله بلطفه ورحمته ، ويخصه بعميم فضله وكرامته ، ويؤدبه فيجمع له رفيع الخصال ونهاية عظمة الأخلاق ، حتى وصفه بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[١] ﴾ .

ولقد عرف صلى الله عليه وسلم فضل الله عليه ، وافتخر به ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أَدَّبَنِي رَبِّي ، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي[٢] » .

ولقد كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم استجابات نفسية وقولية وعملية لما يوحى إليه ربه فى القرآن . وإننا لنفهم هذه الحقيقة واضحة ، كما تجلوها لنا السيدة عائشة : أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، حينما تُسأل عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقول : كان خُلُقُه القرآنَ . أما تقرأ قول الله عز وجل : ﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ[٣] ﴾ .

وهى رضى الله عنها التى تحدثت عنه صلى الله عليه وسلم ، ذات مرة ، فقالت : ما كان أحدٌ أحسنَ خُلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم !. ما دعاه أحدٌ من أصحابه ولا أهلِ بيته ، إلّا قال : « لبَّيك[٤] » . .

---

(١) سورة « ن » : ٤

(٢) الجامع الصغير : ج ١ ص ٢١ عن ابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود .

(٣) الفتح الربانى ج ٢ ص ١٧

(٤) رواه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص ٢١ ج ١ شرح الشفا .

وعن عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشًا ولا متفحِّشًا، وكان يقول:

« خِيارُكُمْ : أَحْسَنُكُمْ أَخْلاقًا [(١)] » .

وعن أنس رضى الله عنه قال:

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبَّابًا ولا لعَّانًا ولا فحَّاشًا [(٢)] .

وقد كان خلقه صلى الله عليه وسلم السبب المباشر فى إسلام الكثيرين ،

وفى خبر الجلندى — ملك عمان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — لما بلغه أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، قال الجلندى : والله لقد دلنى على هذا النبىّ الأمىّ أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به !.. ولا ينهى عن شرّ إلا كان أول تارك له ! . وأنه يَغلِب فلا يبطر ، ويُغلَب فلا يضجر ، ويفى بالعهد ، وينجز الموعود !.. وأشهد أنه نبى [(٣)] .

وإن من يدرس فلسفة الأخلاق ، ومناهج الفلاسفة ومقاييسهم لضبط سلوك البشر ، ليأخذه العجب بما فيها من فكر عميق ، وتلمس للحقيقة ، واستشراف للمثل العليا . ولسنا نغمط فضل أحد نشد الخير للناس واجتهد فى إنارة السبيل أمامهم .

بيد أننا نلفت أنظار المنصفين إلى أساليب التربية الناجحة والأخلاق الرائعة التى جاء بها صاحب الرسالة الخاتمة ، متمثلة فى أخلاقه وسلوكه الشخصى ، وفى توجيهاته وتربيته لأصحابه ، فنقل بها العالم من الغىّ إلى الرشاد ! . . وسوف يرى من يدرسها كنوزًا حافلة بالنفائس ، دونها ما ورث الناس من فلسفة اليونان والرومان ! . .

---

(١) الفتح الربانى جـ ٢٢ ص ٢٠ (٢) التاج جـ ٥ ص ٢٧

(٣) الشفا للقاضى عياض : جـ ١ ص ٢٠٨

ولقد قيل لعالم مسلم : هل قرأت أدب النفس « لأرسطو » ؟ فقال : بل قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وإنا لنرجو الله تعالى أن يوفقنا لجلاء بعض معالم أخلاقه ، كما نرجوه سبحانه وتعالى أن يجعل من هذه السطور واللمحات من خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياته خير مثل وقدوة ، وأن يوفق المسلمين لتعديل سلوكهم على وفقها وطبع أخلاقهم بها . . فنسوق إليك بعضاً مما ورد من أخلاقه صلى الله عليه وسلم .

* * *

* حِلْمُهُ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

الحلم قدرة نفسية يكتسبها ذوو الإرادة القوية ، يوفرون بها لأنفسهم قدراً من الوقار والثبات ، وعدم التسرع الذى قد يودى بهم أو يحط من قدرهم أو يضيع عليهم هدفهم .

واكتساب صفة الحلم ليس بالأمر الهين ، ولكنه أمر شاق عسير ، ففيه حبس لقوة الغضب والتحكم فى استجابات غريزية ، وحسن التصرف والروية فى وسط هياج العاصفة وتوتر النفس ولا يستطيع ذلك إلا من أوتوا همة عالية وتمسكوا بالمثل السامية . فإن الإنسان بطبيعته وبما ركب فيه من غرائز أو دوافع إذا ما ارتكب ضده عمل ضارّ به ، أو سمع قولا يبعث على الغضب ، ثارت عواطفه ، وتوترت نفسه ، فاندفع إلى تعجيل الانتقام .

ولعل ترويض النفس وحبسها عن ذلك ، والتحكم فيها هو بعض ما أراده الرسول صلى الله عليه وسلم ، من قوله لصحابته بعد عودتهم من غزوة « تبوك » ، وما لاقوه فيها من مشقة وإجهاد :

« رَجَعْنا مِنَ الْجِهادِ الأَصْغَرِ ،
إِلَى الْجِهادِ الأَكْبَرِ ، وَهُوَ : جِهادُ النَّفْسِ[١] » .

ولقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الصفة غاية الكمال :
وكيف لا ، وقد قال الله تعالى له :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[٢] ﴾ .

فلما نزلت الآية الكريمة ، سأل الرسولُ عليه الصلاة والسلام جبريل عن تأويلها . فقال جبريل عليه السلام له : حتى أسأل العليم — أي الله جل وعلا — ثم ذهب وأتاه ، فقال له :

يا مُحَمَّدُ . إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ،
وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ[٣] .

ولقد أوردت لنا الآثار الصحيحة طرقاً من حلمه صلى الله عليه وسلم :

١ — فعن عائشة رضى الله عنها قالت : لم يكن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً[٤] ولا متفحِّشاً ولا صخاباً[٥] في الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة مثلها !.. ولكن يعفو ويصفحُ !..

---

(١) رواه البيهقي في الزهد ص ٦٤ ج ٣ الإحياء .

(٢) الأعراف : ١٩٩ (٣) ص ٣٤٥ ج ٧ تفسير القرطبي .

(٤) الفاحش : هو الناطق بالفحش ، وهو المجاوز للحد في الكلام السيء . والمتفحش : هو المتكلف ، أي لم يكن الفحش له خلقاً ولا مكتسباً — قاله الحافظ — الفتح الرباني : ج ٢٢ ص ٢٠

(٥) الصخب والسخب : الضجة واضطراب الأصوات للخصام — الفتح الرباني : ج ٢٢ ص ٢٦

وإذا كان هذا قول عائشة وإخبارها عن حلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإننا لنجد كلامها هذا واقعاً فعلياً فى سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم معَ أصحابه ، بل ومع أعدائه أيضاً ! . .

٢ — فمن أنس رضى الله عنه قال : كنتُ أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه بُرد نجرانىّ غليظُ الحاشية . فأدركه أعرابى ، فجبذه جبذة حتى رأيت صفح ـ أو صفحة ـ عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته !..

فقال : يا محمد . أعطنى من مال الله الذى عندك ..

فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ، ثم أمر له بعطاء(١) !..

وهذه صورة أخرى ربما كانت أقسى من الأولى ، ومع ذلك فقد كان حلم الرسول صلى الله عليه وسلم فيها أوسع ، وصفحه وإحسانه أكبر

٣ — فهذا أبو هريرة رضى الله عنه يقول : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ثم قامَ ، فقمنا .. فنظرت إلى أعرابى قد أدركه فجبذه بردائه ، فحمر رقبته . وكان رداؤه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خشنا . فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم !.. فقال له الأعرابى . احمل لى على بعيرىّ هذين ، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك . فقال النبى ﷺ : « لا ، وأستغفر الله ، لا ، وأستغفر الله ، لا ، وأستغفر الله . لا أحمل لك حتى تقيدنى(٢) من جبذتك التى جبذتنى » .

فكل ذلك يقول له الأعرابى : والله لا أقيدكها .

فلما سمعنا قول الأعرابى ، أقبلنا إليه سراعاً . .

---

(١) رواه أحمد ـ الفتح الربانى : جـ ٢٢ ص ١٩

(٢) تقيدنى : أي تمكننى من أن أقتص منك بمثلها .

فالتفت إلينا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« عزمتُ على من سمع كلامى ألا يبرح مكانه حتى آذن له » .

ثم دعا رجلا فقال له : « احمل له على بعيريه هذين ، على بعير شعيرًا ، وعلى الآخر تمرًا » .

ثم التفت إلينا ، ثم قال : « انصرفوا على بركة الله[1] » .

٤ — وروى عن عبد الله رضى الله عنه ، قال :

قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة كبعض ما كان يقسم . فقال رجل من الأنصار : والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله ! قلت : أما لأقولن للنبي صلى الله عليه وسلم .. فأتيته وهو فى أصحابه فساررته ، فشقّ عليه .. وتغير وجهه وغضب ، حتى إنى وددْت أنى لم أكن أخبرته ، ثم قال — صلى الله عليه وسلم :

« أُوذِىَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .. فَصَبَرَ[2] ! »

٥ — وهذا بهز بن حكيم رضى الله عنه يخبرنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب وبين الناس « حَيْدَةُ » جد « بهز » ..

فجاء رجل من قومه فقال : يا محمد ، علام تحبس جيرتى ؟

وكان النبى صلى الله عليه وسلم حبسهم فى تهمة ..

فصمت النبي صلى الله عليه وسلم عنه .

فقال : إن ناساً ليقولون : إنك تنهى عن الشر وتستخلى به[3] .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما يقُول ؟ ! »

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود — التاج : جـ ٥ ص ٦٩

(٢) متفق عليه — رياض الصالحين : ص ٣٨ ، ٣٩

(٣) تستخلى به : تنهى عن الشر وتفعله خفية .

قال : ـ جد بهز ـ فجعلت أعرض بينهما بالكلام ، مخافة أن يسمعها ، فيدعو على قومى دعوة لا يفلحون بعدها أبدا !..

فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم حتى فهمها ، فقال . « قد قالوها ؟ » أو : قائلهـا منهم ؟ . والله لو فعلت لكان علىّ وما كان عليهم ، خلّوا له عن أصحابه .

فهذا الرجل من قوم حيدة جد بهز بن حكيم يسمع رجلا من قومه يتطاول على مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيخشى أن يسمع الرسول صلى الله عليه وسلم ما قاله الرجل ، فيغضب ويدعو على قومه ! .

فوقف حيدة يحاول أن يصرف الرسول ﷺ عن التحقق مما نسب هذا السفيه إلى رسول الله ﷺ . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يلبث أن عرف حقيقة ما قال الرجل ، وتألم لذلك ألماً شديداً . . وكان يمكنه أن يأمر أحد أصحابه بمعاقبة هذا المتجنى ويحاسبه على تطاوله على الرسول صلى الله عليه وسلم بالباطل ؛ ولكن الرسول ﷺ صبر على هذا الأذى ، وصفح عن مرتكبه ؛ بل وأحسن إليه ، فأمر بأن يخلى سبيل أصحابه المحبوسين بتهمة اتهموا بها[1]

ولا أدل على تمكن هذه الصفة من نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصالتها فى خلقه من أنها عمت الجميع حتى شملت أعداءه ، فكانت سبب إسلام الكثيرين منهم !

عن عبد الله بن سلام قال : إن الله عز وجل لما أراد هدى زيد بن سَعْنَة ، قال زيد : ما من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفته فى وجهه ، سوى اثنتين لمـا أَخْبُرْهما[2] منه :

---

(١) الفتح الربانى : ج١٦ ص ١٢٤ (٢) أعرفهما فيه .

يسبق حلمه جهل الجاهل !.
ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً !..

فكنت أنطلق إليه لأخالطه وأعرف حلمه .. فخرج يوماً ومعه علىّ بن أبى طالب ، فجاءه رجل كالبدوىّ فقال : يا رسول الله ، إن قرية بنى فلان أسلموا ، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغداً .. وقد أصابتهم سنة[1] وشدة ، وإنى مشفق عليهم أن يخرجوا من الإسلام . فإن رأيت أن ترسل لهم بشىء يعينهم .

قال زيد : فقلت أنا أبتاع منكم بكذا وكذا وسقا .

فأعطيته ثمانين ديناراً ..

فدفعها إلى الرجل وقال : « اعجل عليهم بها ، وأعنهم . »

فلما كان قبل المحل[2] بيوم أو يومين أو ثلاثة ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة فى نفر من أصحابه .. فجبذتُ[3] رداءه جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقه ، ثم أقبلت بوجه جهم غليظ ، وقلت : ألا تقضينى يا محمد ؟! فوالله ما عَلِمْتكم بنى عبد المطلب لَمُطل !

فارتعدت فرائص عمر بن الخطاب كالفلك المستدير ، ثم رمى ببصره فقال : أىْ عدوّ الله ! أتقول هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتصنع به ما أرى ، وتقول ما أسمع ؟ ! فو الذى بعثه بالحق ، لولا ما أخاف فَوْتَه لسبقنى رأسك[4] .

---

(١) بفتح السين : الشدة . (٢) أى حلول أجل الدين .
(٣) جبذ رداءه : شده بقوة ، يقال جبذه وجذبه بمعنى واحد .
(٤) يقصد : لولا ما أخافه من غضب الرسول لقتلتك .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى عمر فى تؤدة وسكون، ثم تبسم وقال : « أنا وهو أحوج إلى غير هذا :

أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التِّباعة[1] .

اذهب يا عمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً من تمر . »

فقلت : ما هذا ؟ قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أزيدك مكان منازعتك . فقلت : أتعرفنى يا عمر ؟ قال : لا ، فمن أنت ؟ قلت : أنا زيد بن سَعْنة . قال : الحبر ؟ قلت : الحبر . قال : فما دعاك أن تفعل برسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلت ، وتقول له ما قلت ؟ !

قلت : يا عمر ، إنه لم يبق من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفته فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما !.. فقد اختبرته منه . . فأشهدك — يا عمر — أنى رضيت بالله : ربًّا ، وبالإسلام : دينًا ، وبمحمد : نبيًّا !.. وأشهدك أن شطر مالى لله — فإنى أكثرها مالا — صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر : أو على بعضهم ، فإنك لا تسعهم كلهم .

قلت : أو على بعضهم . قال : فرجع عمر وزيد بن سعنة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله . فآمن به ، وصدقه ، وبايعه ، وشهد معه مشاهد كثيرة[2] .

---

(١) بتاء مشددة مفتوحة : الطلب .

(٢) الوفا بأحوال المصطفى : ج ٢ ص ٤٢٥

ولقد كان هذا حال رسول الله صلى الله عليه وسلم دائماً ، حتى ليعبر عن ذلك عمـــر بن الخطاب رضى الله عنه فى بعض كلامه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله . لقد دعا نوح على قومه فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ . ولو دعوتَ علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا !.. فقد وطئ ظهرك ، وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك !.. فأبيت أن تقول إلا خيراً ، فقلت :

« اَللَّهُمَّ اُغْفِرْ لِقَوْمِي ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ !.. »

يقول القاضى عياض ، تعقيباً على حديث عمر ، رضى الله عنه :

انظر هذا القول من جماع الفضل ، ودرجات الإحسان ، وحسن الخلق ، وكرم النفس وغاية الصبر والحلم ، إذ لم يقتصر صلى الله عليه وسلم على السكوت عنهم ، حتى عفا عنهم !.. ثم أشفق عليهم ورحمهم ، ودعا وشفع لهم فقال : « اغفر أو اهد » ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله : « لقومى » ، ثم اعتذر بجهلهم فقال : « فإنهم لا يعلمون[1] » .

* * *

* صِدْقُهُ وَأَمَانَتُهُ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الصدق هو مطابقة الكلمة للواقع . . وقد كان حال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصدق دائماً ، مع أصدقائه وأعدائه ، وسواء أكان جاداً أو مازحاً ، راضياً أو غاضباً ، فى حالة سلام أو حرب !.. وهو فى كل ذلك يقول الحق ، وينطق بالصدق ، ويدعو إليه ويحبب الناس فيه ، ويبين لهم أثره !.. فعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال :

(١) شرح الشفا : جـ ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ! وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا !.. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ! وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا ![1] » .

وتقول عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها :

ما كان من خُلُقٍ أبغضَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان الرجلُ يكذبُ عندَه الكِذْبة ، فما يزال في نفسه ، حتى يعلم أنه قد أحدث فيها توبة[2] .

ومن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن آراء الناس فيه : أصدقاؤه وأعداؤه على السواء ، نقتبس أمثلة تبين ثقتهم في جانب الصدقِ والأمانة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن حديث لابن إسحاق عن الرسول عليه الصلاة والسلام — قبل بعثته — يقول :

كانت خديجة بنتُ خويلد ، امرأة تاجرة ، ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتُضاربهم إياه بشيء تجعله لهم .. وكانت قريش قوماً تجاراً .. فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه ، بعثتْ إليه ؛ فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتُعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غُلام لها يُقال له : ميسرة ..

(١) متفق عليه — رياض الصالحين : ص ٥٦٠

(٢) رواه أحمد والبزار — الترغيب والترهيب : ج ٣ ص ٢٣٤

فقبله رســـول الله ﷺ وخرج فى مالها ، وخرج معه غلامها ميسرة ، حتى قدم الشام .. ثم باع رسول الله سلعته التى خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشترى ، ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة .. فلما قدم مكة باعت خديجة ما جاء به ، فأضعفت[1] أو قريباً[2] !..

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل :

واستطاع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأمانته ومقدرته أن يتجر بأموال السيدة خديجة تجارة أوفر ربحا مما فعـــل غيره من قبل ، واستطاع بحلو شمائله وجمال عواطفه ، أن يكسب محبة « ميسرة » وإجلاله !.. فلما آن لهم أن يرجعوا إلى مكة ، ابتاع لخديجة من تجارة الشام كل ما رغّبت إليه أن يأتيها به [3] .

وهكذا كان صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمانته من أهم العوامل التى حببت السيدة خديجة رضى الله عنها فيه ، ورغبتها فى الزواج منه .

وعندما أمره الله سبحانه وتعـــالى بالجهر بالدعوة ، ونزل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد على الصفا ، فقال : « يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ .. »

فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف : فأقبلوا واجتمعوا فقالوا : مالك يا محمد ؟ قال : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا [4] بِسَفْحِ هٰذَا الْجَبَلِ ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي ؟ »

(١) أضعفت : ربح مالها ضعف ما كان يربح .

(٢) سيرة ابن هشام : جـ ١ ص ١٢١

(٣) حياة محمد : ص ٨٣ (٤) جيشاً لأعداء يغيرون عليكم .

قالوا : نعم . أنت فينا غير متّهم ، وما جرّبنا عليك كذبا قط[(١)] !! .. الحديث .

وحينما اشتدت المخاصمة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، حتى أصبح كل قريش تقريبا حريصا على صدّ الناس عنه ، بل وعلى قتله !.. احتمعوا فى مجلس من مجالسهم ، محاولين صرفه عن دعوته .. فأبى .. فاشتد بهم الحنق والرغبة فى الكيد له ، حتى لقد تآمر أبو جهل وجماعة على قتله !.. وتحدث المجتمعون بذلك بعد قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فوقف النضر بن الحارث بن علقمة ابن كلدة — وهو من زعمائهم — فكان مما قاله :

يا معشر قريش : إنه والله قد نزل بكم أمر ، ما أتيتم له بحيلة بعد ! قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ! . حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر ؟ لا ، والله ما هو بساحر[(٢)] .. الحديث .

ولا أدل على تأصل الأمانة فى خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حرصه على أدائها ، حتى مع أعدائه ومدبرى قتله !..

وليلة هجرته ، يقول ابن إسحاق :

ولم يعلم أحد — فيما بلغنى — بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا حين خرج ، إلا علىّ ابن أبى طالب ، وأبو بكر وآل أبى بكر . أما علىّ ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ١ ص ٢٠٠

(٢) سيرة ابن هشام : جـ ١ ص ١٩٤ ، ١٩٥

صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته [١] !..

مع ما كان منهم من عداوة وبغضاء ، وإيذاء وتآمر على قتله وإخراج له من بلده ، لم يخن أماناتهم عنده !. فهل هناك درجة أعلى فى الأمانة وتأصلها من تلك الدرجة ؟!

* * *

* زُهْدُه : صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لقد كان زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الدنيا وعدم ميله إلى أحوالها وزينتها ومتعها فى مستوى لم يصل إليه إلا أولو العزم من الرسل . فلقد كانت قوة إرادة الرسول صلى الله عليه وسلم أقوى من شهوات النفس ولذائذها ، وتعلقاته الروحية أكبر من حاجاته الجسدية ، بما طبع عليه من سمو الغاية ونبل المقصد وكمال الخلق !.. حتى لقد كان يدعو ربه أن لا يجعل همه فى الدنيا .

فَمِنْ قَوْلِهِ :

« اَللَّهُمَّ ٱجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا [٢] » .

ولقد كان زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا يُحتذى :

١ — فما كان يوماً حريصاً على المال !.. وقد كان فى إمكانه أن يُصبح عنده منه ما لا يمكن حصره !..

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٧٥

(٢) رواه الشيخان - شرح الشفا : ج ١ ص ٣٠٦

فعن أبى أمامة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا .

فَقُلْتُ : لا يا رَبِّ ، وَلٰكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا[1] !..

فَإِذا جِعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ ،

وَإِذا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ[2] !.. »

ولهذا كانت حياته صلى الله عليه وسلم دائماً على الكفاف .

٢ — فعن علىّ بن رباح رضى الله عنه قال : سمعت عمرو ابن العاص رضى الله عنه يقول : أصبحتم ترغبون فى الدنيا !.. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيها !.. والله ما أتت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فى دهره إلا كان الذى عليه أكثر مما له . فقال له بعضهم : قد رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستسلف[3] !

٣ — بل إنه صلى الله عليه وسلم ما كانت نفسه تميل إلى المال ، إلا أن يكون لينفقه فى سبيل الله .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن النبى صلى الله عليه وسلم التفت إلى جبل أحد ، فقال :

« وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، ما يَسُرُّنِي أَنَّ أُحُدًا يُحَوَّلُ لِآلِ مُحَمَّدٍ ذَهَبًا أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَمُوتُ يَوْمَ أَمُوتُ أَدَعُ مِنْهُ دِينارَيْنِ ، إِلَّا دِينارَيْنِ أُعِدُّهُما لِدَيْنٍ إِنْ كانَ » .

---

(١) أو نحو ذلك . (٢) رواه أحمد ـ الفتح الربانى : جـ ٢٢ ص ٢٨

(٣) المصدر السابق : ص ٢٩

فمات ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يترك ديناراً ، ولا درهماً ، ولا عبداً ولا وليدة ! .

٤ — ومن كراهيته صلى الله عليه وسلم أن يبقى عنده شيء من مال بعد وفاته ، ما روته السيدة عائشة رضى الله عنها من أنه كان عندها ستة دنانير ، ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضاً ، فأمرها أن تفرقها !.. فلما اشتد وجعه انشغلت به ..

فلما أفاق سألها عنها ، فأخبرته بأنها شُغلت به عن تفريقها .

فدعا بها ، فصفّها فى كفه ، فقال :

« ما ظَنُّ نَبِيِّ اللهِ يَلْقَى اللهَ

ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَهٰذِهِ عِنْدَهُ[1] ؟ ! »

فإذا كان هذا حاله فى المال ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان أزهد فيما سواه . ففى الطعام :

١ — قالت عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تِباعاً من خبز الشعير حتى مضى إلى سبيله !..

وفى رواية عنها : ولو شاء لأعطاه الله ما لا يخطر ببال !..

وفى رواية عنها أيضاً ، رضى الله عنها : ولقد مات وما فى بيتى شيء يأكله ذو كبد إلا شطر (نصف صاع) شعير فى ردف (أى رف) لى[2] .

وعنها رضى الله عنها ، قالت : كنا ـ آل محمد ـ لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً !.. إن هو إلا التمر والماء[3] !..

---

(١) المصدر السابق (بالمعنى) .

(٢) رواه الشيخان ـ شرح الشفا : جـ ١ ص ٣٠٨

(٣) أى لا يكون طعامهم إلا التمر والماء .

بل كان أكثر أيامه صلى الله عليه وسلم يبيت هو وأهله طاوين جائعين ! . فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت هو وأهله ، الليالى المتتابعة ، طاوين لا يجدون عشاء (١) .

وفى الفراش :

١ — وكذلك كان زهد الرسول صلى الله عليه وسلم عن الفراش الناعم المريح : فعن عائشة رضى الله عنها ، قالت . إنما كان فراشه صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه أدما (٢) حشوه ليف (٣) .

وكان ينام أحيانا على سرير مرجول بشريط (٤) حتى يؤثر فى جنبه (٥) .

وما ذكرناه إشارة فقط إلى بعض ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الزهد .

* * *

* جُودُهُ وَسَخاؤُهُ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

من الناس من تأصلت فى نفوسهم دوافع الخير ، فأصبح جودهم سمة بارزة لا تتوقف على دفع مصيبة ، أو قضاء حاجة ؛ وإنما هو برٌّ وتكريم للجميع ، للقريب ذى الرحم ، وللغريب ، وللجار البعيد ، وللغنى والفقير ولابن السبيل أو المقيم .

---

(١) رواه ابن ماجه ، والترمذى وصححه ! : ج ١ ص ٣١٠

(٢) جلدا مدبوغا ، وقيل الأحمر ، وقيل الأسود .

(٣) روى فى الصحيحين .

(٤) منسوج بحبل مفتول من سعف النخيل .

(٥) رواه الشيخان والترمذى وابن ماجه .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى لهؤلاء ، لا يُبارى فى كرمه ، ولا يُتطاول إليه فى جوده وسخائه !..

وصفه بذلك كل من عرفه

عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه ، قال :

ما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فقال : « لا »[١] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان النبى صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير[٢] ، وأجود ما كان فى شهر رمضان ! وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة[٣] !.. ولقد كانت هذه حاله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة : فهذه السيدة خديجة رضى الله عنها تقول له عند البعثة . (... ووالله لا يُخزيك الله أبدا . إنك لتصِلُ الرَّحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلَّ[٤] ، وتكسب المعدوم[٥] ، وتقرى الضيف[٦] وتُعين على نوائب الحق[٧]) .

٤ — ولقد بلغ من جود رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا يرد سائلا بدون عطاء ، حتى ولو لم يكن عنده شىء ، فإنه يقترض له ويُعطيه ، أو يطلب من السائل أن يبتاع ما يريد من تجار المدينة على أن يدفع الرسول صلى الله عليه وسلم ثمن ما يشترى .

فلقد جاء رجل إليه صلى الله عليه وسلم ، فسأله . .

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، ومسلم فى فضائله صلى الله عليه وسلم ، والترمذى فى الشمائل جـ ١ ص ٢٤٦ شرح الشفا .

(٢) أى بكل ما ينفعهم فى دينهم . (٣) رواه الشيخان .

(٤) الكل ، بفتح الكاف وتشديد اللام : الضعيف .

(٥) أى تعطى الفقير . (٦) تكرم الضيف . (٧) حياة محمد ص ١٣٤

فقال : « ما عِنْدِي شَيْءٌ ! .. وَلَكِنِ ٱبْتَعْ عَلَيَّ ،
فَإِذا جاءَنا شَيْءٌ قَضَيْناهُ .. »

فقال له عمر ، رضى الله عنه : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه !
فكره النبى صلى الله عليه وسلم ذلك . فقال له رجل من الأنصار :
يا رسول الله ، أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا .

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرف البشر فى وجهه ،
وقال : « بِهٰذا أُمِرْتُ (١) . »

٥ — و « جود » الرسول صلى الله عليه وسلم لا تحدُّه حدود .

فعن أنس رضى الله عنه أن رجلا سأله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاه
غنما بين جبلين ! فرجع إلى بلده — وروى لقومه ما رآه من
رسول الله صلى الله عليه وسلم وسخائه ، وقال لهم : أسلموا ، فإن محمدا
يُعطى عطاء من لا يخشى الفقر (أو يعطى عطاء من لا يخشى فاقة(٢)) !

وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ، ثم مائة ، ثم مائة (٣) !..

٦ — وعن صفوان بن أمية رضى الله عنه ، قال : أعطانى
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، وإنه لأبغض الناس إلىّ !..
فما زال يعطينى حتى صار وإنه لأحبّ الناس إلىّ (٤) !..

ولقد كان هذا الكرم سببا فى إسلام كثير من الأعراب ، إذ أنهم
رأوه صورة غير عادية لا يقدر عليها بشر عادىّ ، مهما بلغ ثراؤه وجوده ،
وكان سخاء الرسول ﷺ وكرمه يأخذ بمجامع القلوب والألباب .

---

(١) ذكره الترمذى فى الشمائل : ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ جـ ١ شرح الشفا .

(٢) رواه مسلم : ص ٢٥٠ جـ ١ شرح الشفا .

(٣) ص ٢٤ جـ ٢٢ الفتح الربانى . (٤) ص ٣٦ المصدر السابق .

فعن أنس رضى الله عنه قال : إن كان الرجل ليأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، ما يريد إلا أن يُصيب عرضا من الدنيا . أو قال : دنيا يصيبها ، فما يُمسى من يومه ذلك حتى يكون دينه أحب إليه ، أو قال : أكبر عليه من الدنيا وما فيها !..

وكان من عادته صلى الله عليه وسلم أن يقبل الهدية ، ولكن كرمه كان يأبى عليه إلا أن يكافئ عليها ، فما أهدى إليه أحد شيئا إلا أعطاه أضعاف هديته !..

٨ — فقد ذكر عن معوذ بن عفراء رضى الله عنه ، قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع (١) من رطب وأجر زغب (٢) ، فأعطانى ملء كفه حليًا وذهبا (٣) !..

٩ — وما كان يمنع شيئا ، ولو كان فى أشد الحاجة إليه !..

فعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه : أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم ببردة منسوجة فيها حاشيتاها (٤) ، قال سهل : وهل تدرون ما البردة ؟ قالوا : نعم . هى الشملة ، قال : نعم . فقالت : يا رسول الله ، نسجتُ هذه بيدىّ فجئت بها لأكسوكها . فأخذها النبى صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها . . فخرج علينا وإنها لإزاره . . فجسّها فلان ـ رجل سماه (٥) ـ فقال : ما أحسن هذه البردة ! أكسنيها يا رسول الله . قال : « نعم . »

---

(١) وعاء مما يؤكل عليه .

(٢) وأجر زغب : أى قثاء صغيرة عليها زغب .

(٣) رواه الترمذى فى الشمائل : ص ٢٥٢ جـ ١ شرح الشفا .

(٤) حاشية الثوب : هدبه . (٥) قيل : إنه سعد بن أبى وقاص .

فلما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم ، طواها وأرسل بها إليه !

فقال له القوم : والله ما أحسنت !..

كُسِيَهَا رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، محتاجا إليها .

ثم سألتَه إياها ، وقد علمت أنه لا يرد سائلا !

فقال : والله إنى ما سألته لألبسها !. ولـكن سـألته إياها ، لتكون كفنى يوم أموت !..

قال سهل : فكانت كفنه يوم مات (١) !..

١٠ — وكان صلى الله عليه وسلم إذا أدى إليه أحد معروفا ، كافأه وجازاه فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

أتى رجل النبى صلى الله عليه وسلم يسأله — ولم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء يعطيه — فاستسلف نصف وسق (٢) . .

فجاء الرجل يتقاضاه (٣) . . وأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم وسقا ، وقال : « نصفه قضاء ، ونصفه نائل (٤) . »

١١ — وكان صلى الله عليه وسلم إذا جاء مال من فىء أو غنيمة ، فإنه لا يستريح ولا يقرّ له قرار حتى يوزعه على السائلين والمحتاجين ، ولا يدخر لنفسه إلا قوت عامه !..

فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط ، من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، يضع سائر ذلك فى سبيل الله (٥) !..

---

(١) ص ٣١ جـ ٢٢ الفتح الربانى . (٢) الوسق : إناء يكال به .

(٣) يطلب من رسول الله ما استسلمه منه .

(٤) منحة : هـدية ، رواه الترمذى فى الشمائل : ص ٢٥٣ جـ ١ شرح الشفا . (٥) متفق عليه — ص ٣٦٠ جـ ٢ : الإحياء .

وحملت إليه تسعون ألف درهم . فوضعت بين يديه على حصير ..
ثم قام إليها يقسمها فما ردّ سائلا حتى فرغ منها[١] .

١٢ — وإذا كانت أعلى مراتب الجود هي أن يؤثر الإنسان على نفسه وأولاده وأهله ، فقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك المنزلة السامية التي لم يبلغها بشر كائنا من كان .

روى ابن عباس رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم كان يؤثر مما ادخر لعياله ، حتى ربما احتاج قبل العام !..

* * *

* تَوَاضُعُهُ : صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لقد أعطى الله سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم كل أسباب الشرف والرفعة !.. فما من بشر ولا نبي ولا ملك نال ما نال محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل والكرامة والمنزلة عند ربه عز وجل !..

ومع ما تيسر له من أسباب العظمة الحقيقية والمهابة الربانية والكمال الإنساني ؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواضعاً غاية التواضع !..

١ — فلقد روى أحمد والبيهقي أنه صلى الله عليه وسلم خُيِّر بين أن يكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبدا .. فاختار أن يكون نبياً عبدا !..
فقال له إسرافيل عند ذلك :

فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له : أنك سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من تنشق الأرض عنه ـ للبعث ـ وأول شافع[٢] !..

---

(١) رواه الستة : ص ٢٥١ جـ ١ شرح الشفا .

(٢) ص ٢٨٨ جـ ١ شرح الشفا .

٢ — ومع ما آتاه من التقدم والإمامة والفضل على الأنبياء ، فقد كان يكره أن يفضله أحد على نبي من أنبياء الله ، أو أن يناديه أحد بلفظ التفضيل عليهم !..

فهذا رجل من المسلمين يناديه فيقول : يا خير البرية .

فرد عليه الرسول ﷺ متواضعاً بقوله : « ذاك إبراهيم[١] » .

وورد أنه استبّ مسلم ويهودى ، فقال اليهودى : والذى اصطفى موسى على العالمين !.. فلطمه المسلم . .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقال :

« لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِياءِ ، وَلا تُخَيِّرُونِى عَلَى مُوسَى[٢] . »

٣ — وإذا كان هذا حاله صلى الله عليه وسلم فى تواضعه لربه ، وتواضعه مع إخوانه الأنبياء ، فلقد كان كذلك عليه الصلاة والسلام مع أصحابه . فعن عمر رضى الله عنه :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تُطْرُونِى كَما أَطْرَتِ النَّصارَى عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فَإِنَّما أَنا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ[٣] . »

٤ — وعن أنس رضى الله عنه أن رجلا قال للنبى ، صلى الله عليه وسلم : يا سيِّدَنا ، ويا خيرَنا ، وابن خيرنا .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ص ٢٩٢ شرح الشفا .

(٢) رواه الشيخان وأبو داود والنسائى ص ٢٩١ ، ٢٩٢ شرح الشفا .

(٣) الفتح الربانى : جـ ٢٢ ص ٢١

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ : قُولُوا بِقَوْلِكُمْ[١] ، وَلا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ . أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولُهُ ، واللهِ ما أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ ما رَفَعَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ[٢] » .

٥ — ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، أنه كان يكره أن يتميز عليهم فى المجلس أو فى السير .

فمن أبى أمامة رضى الله عنه قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم فى يوم شديد الحر نحو بقيع الغرقد .. قال : فكان الناس يمشون خلفه .. فلما سمع صوت النِّعال ، وقر ذلك فى نفسه ؛ فجلس حتى قدّمهم أمامه ، لئلا يقع فى نفسه من الكبر[٣] !..

وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئاً[٤] على عصا .. فقمنا له تعظيماً وتكريماً فقال : « لا تَقُومُوا كَما تَقُومُ الأَعاجِمُ : يُعَظِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ! » .

وقال : « إِنَّما أَنا عَبْدٌ !.. آكُلُ كَما يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَأَجْلِسُ كَما يَجْلِسُ الْعَبْدُ[٥] !.. »

ودخل عليه رجل ، فأصابته رعدة .. فقال له :

« هَوِّنْ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّى لَسْتُ بِمَلِكٍ .. إِنَّما أَنا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ[٦] . »

---

(١) بقولكم : أى بما تعرفون فىّ ، كقولكم فى التشهد : « وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » . (٢ ، ٣) رواه أحمد ص ٢١ جـ ٢٢ الفتح الربانى .

(٤) متحملا ومعتمداً . (٥) رواه أبو داود فى السنن ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ جـ ١ شرح الشفا . (٦) اللحم المجفف .

٦ — ومن صُوَر تواضعه صلى الله عليه وسلم : تواضعه فى بيته ومع أهله ، فقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها : ما كان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته ؟ فقالت · كما يصنع أحدكم : يخصف[١] نعله [٢] .. وفى حديث آخر قالت : ويحلب شاته ويخدم نفسه ، ويكون فى حاجة أهله ـ أى يساعدهم .

٧ — وإذا كان هذا شأنه صلى الله عليه وسلم مع أهله ، فلقد كان كذلك متواضعاً مع خدمه ومع الفقراء والمساكين وحتى الإماء .

فلقد كان يزور أصحابه ويُخالطهم أى يُمازحهم ويُلاعِبُ صِغارَهم ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول لأخى أنس :

« يا أَبا عُمَيْر . . ما فَعَلَ النُّغَيْرُ[٣] ؟ »

وعن أنس أيضاً قال : إن كانت الأمة[٤] لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنطلق به فى حاجتها[٥] !..

٨ — وكان من كمال تواضعه صلى الله عليه وسلم : يركب الحمار مع قدرته على ركوب الفرس والبغل والناقة ، ويركب وحده ، كما كان لا يتكبر أن يُرْكِب خلفه ، كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه من قوله : ويُرْدف خلفه ، أى يركب وراء ظهره على الناقة وغيرها ، ويعود المساكين ـ من المرضى ، ويجالس الفقراء ـ بل ويفضل مجالسهم

---

(١) يخصف نعله : أى يخرزه ويخيطه .(٢) ص ٢٢ جـ ٢٢ الفتح الربانى .

(٣) ص ١٨ جـ ٢٢ : الفتح الربانى . (٤) الأمة : الرقيقة .

(٥) أى كان صلى الله عليه وسلم تأخذ بيده فتطلب منه أن يذهب معها إلى السوق ، ليشترى لها ما تريد أو يقضى لها حاجتها ؛ فينطلق معها ـ ص ٢٢ جـ ٢٢ . الفتح الربانى .

على غيرهم !. ويجيب دعوة العبد استجابة لقوله تعالى :

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

ويجلس صلى الله عليه وسلم بين أصحابه مختلطا ، فلا يتميز مجلسا يترفع عليهم ، بل يجلس حيث انتهى به المجلس (١) !

* * *

* شَفَقَتُهُ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :

الشفقة رقة فى القلب ، ورحمة تجعل المتحلى بها يميل دائما إلى الرفق والحنو على كل من يحيطون به ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرق الناس وأشفقهم ؛ يرفق بالحيوان ويحض المسلمين على ذلك ، فيقول لهم حين يسأل سائلهم : أفى الحيوان صدقة يا رسول الله ؟.
« وَفِي كُلِّ ذاتِ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ (٢) » . ويقول عليه الصلاة والسلام : « إذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ . وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ (٣) » .

فلا غرابة أن نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يرى رجلا أضجع شاة وهو يحد شفرته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَها مَوْتًا !..

هَلَّا أَحْدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَها (٤) ؟!.. »

---

(١) ص ٢٨٩ جـ ١ : شرح الشفا .

(٢) رواه الحاكم : ص ١٣١ جـ ٢ الجامع الصغير .

(٣) رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه . ص ٤٧ . جـ ٨ نيل الأوطار

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط البخارى . ص ٨٠ جـ ٣ الترغيب والترهيب .

ومرّ صلى الله عليه وسلم ببعير قد لصق ظهره ببطنه !.

فقال صلى الله عليه وسلَّم لأصحابه : « اتَّقُوا اللهَ فِي هٰذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ ؛ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً ، وَكُلُوهَا صَالِحَةً [١] » .

وما ذلك إلا من فرط شفقته صلى الله عليه وسلم بهذه الكائنات الحيّة من ناحية ، وخوفا على أمته من أن يصيبها العذاب من ناحية أخرى ، وتربية لها على الرحمة والرفق حتى تستحق رحمة الله تعالى ، كما يقول صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لا يَرْحَمْ مَنْ فِي الْأَرْضِ ، لا يَرْحَمْهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ [٢] » .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السماءِ [٣] » .

ولذلك نجده صلى الله عليه وسلم يضرب الأمثلة لأصحابه ، يربيهم على الرفق والشفقة . فعن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما ، قالت : صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف ، فقال :

« دَنَتْ مِنِّي النَّارُ حَتَّى قُلْتُ : أَيْ رَبِّ وَأَنا مَعَهُمْ ؟ .

فإذا امْرَأَةٌ (حسبتُ أنه قال) تَخْدِشُها هِرَّةٌ ! . »

قال صلى الله عليه وسلم : « ما شَأْنُ هٰذِهِ ؟ »

قالوا : حبستْها حتى ماتت جوعا [٤] .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه : ص ٨٣ المصدر السابق .

(٢) رواه الطبراني عن ابن مسعود : المصدر السابق .

(٣) رواه أبو داود ، والترمذي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص : ص ٧٩ المصدر السابق . (٤) رواه البخاري : ص ٨٤ المصدر السابق .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « دنا رجل إلى بئر فنزل فشرب منها ، وعلى البئر كلب يلهث ، فرحمه ، فنزع أحد خفيه فسقاه !.. فشكر الله له ، فأدخله الجنة(١) » .

وإذا كانت هذه شفقته صلى الله عليه وسلم بالحيوانات ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان بالضعفاء من الناس أشفق وأرحم !..

فعن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه قال : كنت أضرب غلاماً لى بالسوط . فسمعت صوتاً من خلفى : « اعلم أبا مسعود . »

فلم أفهم الصوت من الغضب . فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فإذا هو يقول . « اعلم أبا مسعود أن الله تعالى أقدر عليك منك على هذا الغلام !.. »

فقلت : لا أضرب مملوكا بعده أبداً !

وفى رواية ، فقلت : يا رسول الله . هو حرٌّ لوجه الله تعالى .

فقال : « أما لوْ لمْ تفعلْ للفحتْك النارُ ، أو لمسَّتْك النارُ(٢) » .

وإذا كان هذا الجانب من رحمته صلى الله عليه وسلم كما رأينا ، فإن جانباً أخطر منه وأعظم قد ترجم عنه القرآن الكريم فى قول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(٣) ﴾ .

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود وابن حبان ــ الترغيب والترهيب : جـ ٨ ص ٣ (٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى ــ الترغيب والترهيب : جـ ٣ ص ٨٤ . (٣) سورة التوبة : ١٢٨

فحين يُشاقُّه قوم من أهل مكة ، ويتحدونه بقولهم :

﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

ولم يطلب من ربه أن ينزل عليهم ما سألوا من العذاب ، بل كان موقفه كما عبر عنه عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى ، حكاية عن سيدنا إبراهيم :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ،

وقولَ عيسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

فرفع يديه وقال : « اَللَّهُمَّ !.. أُمَّتِي ، أُمَّتِي . ! » وبكى !..

فقال الله عز وجل :

[يا جبريل ، اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يُبكيك ؟]

فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال ـ والله تعالى أعلم ! .

فقال الله تعالى : [يا جِبْرِيلُ ، اِذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَقُلْ له : إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ ولا نَسُوءُكَ(١)] .

ومن هـذا أيضاً ما يرويه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ـ التاج : ج ٣ ص ٢٥٨

« لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ . وَإِنِّى اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِى شَفَاعَةً لِأُمَّتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَهِىَ نَائِلَةٌ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ـ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِى لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا[١] » .

وكانت شفقة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمته تعمُّها فى كل أحوالها ، حتى فى العبادة .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم من الأعمال بما يُطيقون ، قالوا : إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله ، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فيغضب حتى يعرف الغضبُ فى وجهه ، ثم يقول :

« إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا[٢] » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ ـ مِنَ التَّطَوُّعِ الزَّائِدِ عَنِ الْفَرَائِضِ .. فَوَاللَّهِ لا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا !.. وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ[٣] » .

وقال لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : « ألم أُخبَرْ أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ » قلت : أفعل ذلك يا رسول الله .

قال : « فإنك إذا فعلت هجمت عينك[٥] ونفهت نفسُك[٤] !.. وإن لنفسك حقًّا ولأهلك حقا .. فصُم ، وأفطر ، وقُم ، ونَم[٦] » .

---

(١) رواه الشيخان والترمذى ـ المصدر السابق .

(٢) رواه البخارى ـ التاج : جـ ١ ص ٤٢

(٣) من حديث لعائشة ، رواه الخمسة . (٤) هجمت : ضعفت وغارت .

(٥) سئمت وكلت . (٦) رواه البخارى ـ التاج · جـ ١ ص ٤١

وإن الباحث ليجد عديدا من هـذه الصور فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته لأمته . وصدق الله حيث يقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

* * *

* شَجاعَتُهُ : صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم بالمكان الذى لا يجهله أحد فى شجاعته . فقد حضر المواقف الصعبة ، وفرّ الكُماة والأبطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ويُقبل لا يُدبر ولا يتزحزح !.. وما من شجاع إلا وقد أحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة ، سواه صلى الله عليه وسلم !..

١ — عن أبى إسحق الهمدانى الكوفى - تابعى جليل - أنه سمع البراء بن عازب يسأله رجل : أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفرّ ، ثم قال : لقد رأيته على بغلته البيضاء ، وأبو سفيان آخذ بلجامها ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول :

« أَنا النَّبِيُّ لا كَذِبْ !.. أَنا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ !.. »

قيل : فما رُئِيَ أحد يومئذ أشد منه !.

٢ — وذكر مسلم عن العباس رضى الله عنه ، قال :

فلما التقى المسلمون والكفار ، وَلّى المسلمون مُدبرين !..

فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته ، وأنا آخذ بلجامها أكفها ، إرادة ألا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركابه !.

---

(١) شرح الشفا : جـ ١ ص ٢٥

ثم نادى : يا للمسلمين[١] يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة !..
يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا !.. إن محمدا حىّ .. فهلمُّوا .
وكرر العباس النداء ، حتى تجاوبت فى كل جنبات الوادى أصداؤه[١].
قال ابن عمر رضى الله عنهما .
ما رأيت أشجع ولا أنجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] !
٤ — وقال علىّ كرّم الله وجهه :
وإنا كنا إذا حَمِىَ البأس ، واحمرّت الحِدَق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم !.. فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ! .
وقيل : كان الشجاع هو الذى يقترب منه رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا دنا العدو ، لقربه منه[٣] !..
٥ — وقال عمران بن الحصين : ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب ! . ولما رآه أُبىّ بن خلف يوم أحد وهو يقول : أين محمـد ؟ لا نجوت إن نجا .
وقد كان يقول للنبى صلى الله عليه وسلم حين افْتُدِىَ يوم بدر : عندى فرس أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليها .
فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أَنَا قَاتِلُكَ إِنْ شَاءَ اللهُ .. »
فلما رآه يوم أُحد ، شدّ أُبىّ على فرسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعترضه رجال من المسلمين . فقال النبى صلى الله عليه وسلم (لأصحابه) : « هكذا » (مشيرا إلى أُبىّ) أى خلوا طريقه .

---

(١) حياة محمد ، لهيكل : ص ٤٧٠
(٢) رواه الدارمى ـ شرح الشفا : جـ ١ ص ٢٥٧
(٣) رواه أحمد ، والنسائى ـ شرح الشفا : جـ ١ ص ٢٥٨

وتناول الحربة من الحارث بن الصِّمّة ، فانتفض بها انتفاضة فتطايروا [١] عنه تطاير الشَّعْراء عن ظهر البعير إذا انتفض ! ثم استقبله النبي صلى الله عليه وسلم ، فطعنه فى عنقه طعنة تدأْدأَ [٢] منها عن فرسه مرارا ، فرجع إلى قريش يقول : قتلنى محمد ... الحديث [٣] .

(رواه أبو الشيخ فى الأخلاق)

عن أنس رضى الله عنه ، قال : كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس !..

لقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قِبَل الصوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا ، قد سبقهم إلى الصوت ، واستبرأ الخبر على فرس لأبى طلحة عُرْيٍ ، والسيف فى عنقه ، وهو يقول : « لَنْ تُراعُوا » [٤] .

٧ — ذهبت قريش إلى أبى طالب ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنًا وشرفا ومنزلة فينا . وإنا قد استنهيناك عن ابن أخيك ، فلم تنهه عنا . وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلِكَ أحد الفريقين ! أو كما قالوا ، ثم انصرفوا عنه ..

فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام [٥] رسول الله صلى الله عليه وسلم (لهم) ولا خذلانه .

---

(١) ابتعدوا بسرعة كما يطير شعر البعير إذا انتفض .

(٢) تمايل .   (٣) شرح الشفا : جـ ١ ص ٨٩

(٤) رواه الشيخان ـ الشفا : جـ ١ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩

(٥) تسليمه لقريش والتخلى عن مناصرته .

قال ابن إسحاق : حين قالت قريش لأبي طالب هذه المقالة ، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا (للذى كانوا قالوا له) فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلنى من الأمر ما لا أطيق .

قال : فظن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء (رأى جديد) وأنه خاذله ومُسْلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . قال : فقال (له) رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

« يا عَمِّ ، وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسارِي ، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هٰذا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ : ما تَرَكْتُهُ [١] » .

* * *

* حَياؤُهُ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ

الحياء هو إغضاء الإنسان وتغافله عما يكره بطبيعته .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن العورات إغضاء . ولقد وصف القرآن ذلك الخُلق فيه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾[٢] .

١ — فعن أبي سعيد الخُدرى رضى الله عنه [٣] : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ حياء من العذراء فى خِدرها !..

وكان إذا كَرِه شيئا عرفناه فى وجهه !..

---

(١) ص ١٧١ ، ١٧٢ : جـ ١ سيرة ابن هشام .

(٢) الأحزاب : ٥٣ (٣) روى فى الصحيحين ، والترمذى فى الشمايل ، وابن ماجه فى الزهد — شرح الشفا : جـ ١ ص ٢٦٢

وكان صلى الله عليه وسلم لطيفَ البَشَرة[١] رقيق الظاهر ، لا يُشافه أحداً بما يكره ، حياء وكرم نفس !..

٢ — وعن عائشة رضى الله عنها[٢] : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه ، لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ، ولكن يقول : « ما بال أقوام يصنعون ، أو يقولون كذا . » ينهى عنه ولا يسمى فاعله .

٣ — وروى عن أنس رضى الله عنه[٣] : أن رجلا دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه أثر صفرة . وكان النبى صلى الله عليه وسلم قلما يُواجه رجلا فى وجهه بشىء يكرهه .. فلما خرج ، قال : « لو أمرتم هذا أن يغسل هذا عنه . »

٤ — وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه صلى الله عليه وسلم كان من حيائه لا يُثبت بصره فى وجه أحد ، وأنه كان يُكنّى عما اضطره الكلام إليه مما يكره[٤] (بصيغة المبنى للمجهول كما ضبطه الحلبى) مما لا يستحسن التصريح به ، تخلقا بأخلاق ربه ، واقتداء بأدبه فى نحو قوله تعالى :

﴿ ...أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ[٥] ﴾ .

ومن حديثه صلى الله عليه وسلم :

« ... إذا لَمْ تَسْتَحِ ، فَاصْنَعْ ما شِئْتَ »[٦] .

---

(١) رقيق الجلدة العليا ، أى يتغير لأدنى شىء يكرهه ـ المصدر السابق .

(٢) رواه أبو داود ـ شرح الشفا : جـ ١ ص ٢٦٣

(٣) رواه أبو داود جـ ٢ ص ٣٩٩ ـ المصدر السابق .

(٤،٥) شرح الشفا : جـ ١ ص ٢٦٤

(٦) رواه الترمذى فى الشمايل ـ المصدر السابق : ص ٢٦٥

وقال أحد الشعراء[١] :

إذا لم تخش عاقبة الليالى ولم تستحيي[٢] فاصنع ما تشاء
فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

* * *

* حِفْظُ ٱللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١ — أبو جهل يحاول قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيعصمه الله :

قال أبو جهل لقومه : يا معشر قريش : إن محمدًا قد أبى إلّا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا . وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدًا بحجر ما أطيق حمله ـ أو كما قال ـ فإذا سجد فى صلاته ، فضخت[٣] به رأسه . فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بنو عبد مناف ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدًا ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا ـ كما وصف ـ ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره . . وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وقبلته إلى الشام ؛ فكان إذا صلى ، صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام . .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ؛ وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل !..

---

(١) قد ضمّن هذا الشاعر معنى الحديث فى شعره .

(٢) مجزوم بحذف حرف العلة ، فتثبت الياء الأولى .

(٣) فضخت : أى كسرت .

فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه . حتى إذا دنا منه رجع منهزماً ممتقعاً لونه ، مرعوباً ، قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده ! .

وقام إليه رجال قريش ، فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة . فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ! . لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قَصَرَته[1] ولا أنيابه لفحل قط ! . فهمّ بى أن يأكلنى .

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ذاكَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ . لَوْ دَنا لَأَخَذَهُ[2] » .

* * *

٢ — الْقَوْمُ يُرِيدُونَ إِيذاءَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاللهُ يَحْفَظُهُ :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قلت لعروة بن الزبير : ما أكثر ما رأيتَ قريشاً أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرون من عداوته ؟ قال : حضرتهم ، وقد اجتمع أشرافهم يوماً فى الْحِجْر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط . . قد سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا . لقد صبرنا منه على أمر عظيم ـ أو كما قالوا . .

فبينا هم فى ذلك : إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فأقبل يمشي حتى استلم الركن . . ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت .

---

(١) القصرة : أصل العنق . (٢) ابن هشام جـ ١ ص ١٩٤

فلما مرّ بهم ، غمزوه ببعض القول

قال : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : ثم مضى . فلما مرّ بهم الثانية . غمزوه بمثلها . .

فعرفت ذلك فى وجهه . ثم مرّ بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها . .

فوقف ، ثم قال : « أتسمعون يا معشر قريش .

أما والذى نفسى بيده : لقد جئتكم بالذبح . . ! ! »

قال : فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر ! إن أشدّهم فيه وَصاةً (أى أذى شديداً) قبل ذلك ليرفؤه[1] بأحسن ما يجده من القول ، حتى إنه ليقول :

انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنتَ جهولا !.

قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد ، اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم فى ذلك ، طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول : كذا وكذا ، (لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم) .

فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، أنا الذى أقول ذلك . »

قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه .

قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه ، وهو يبكى ويقول :

أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ؟

ثم انصرفوا عنه . فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط[2].

---

(١) يرفؤه : يهدئه . (٢) ابن هشام : ج ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨

٣ — الله تبارك وتعالى يكفى رسوله صلى الله عليه وسلم أمر المستهزئين .

كان عظماء المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة نفر من قومه . وكانوا ذوى أسنان (١) وشرف فى قومهم .

من بنى أسد ، (عبد العزى بن قصى بن كلاب) : الأسود بن المطلب بن أسد (أبو زمعة) . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى — قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به . فقال : « اللَّهُمَّ أَعْمِ بَصَرَهُ ، وَأَثْكِلْهُ وَلَدَهُ »

ومن بنى زهرة بن كلاب : الأسود بن يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة . ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة :

الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم

ومن بنى سهم (عمرو بن هصيص بن كعب) : العاص بن وائل ابن هشام . ومن بنى خزاعة : الحارث بن الطلاطلة بن عمرو ابن الحارث بن عبد عمرو بن لؤى بن ملكان .

فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء ، أنزل الله تعالى عليه :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ . (الحجر : ٩٤ـ٩٦)

---

(١) أسنان : كبار السن .

قال أنس فى هذه الآية : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فغمزه بعضهم ، فجاء جبريل أحسَبُه قال فغمزهم ، فوقع فى أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا(١) .

* * *

٤ — قريش تأتمر على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيحفظه ربه ، ويطلعه على تآمرهم :

حين اجتمع كفار مكة فى دار الندوة ، ليتشاوروا فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم .. فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا ، فيمن قد اتبعه من غيرنا . فأجمِعُوا فيه رأيا .

قال : فتشاوروا .. ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا . ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه — من الشعراء الذين كانوا قبله : زهير والنابغة ، ومن مضى منهم — من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم

فقال الشيخ النجدى (وهو إبليس الذى تزيّا بزىّ أهل نجد) : لا والله ما هذا لكم برأى . والله لئن حبستموه — كما تقولون — ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينزعوه من أيديكم ؛ ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا لكم برأى . فانظروا فى غيره .

فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا .. فإذا خرج عنا ، فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذ غاب عنا وفرغنا منه .. فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

---

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٥٥٩ — وسيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٧٧

فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى . ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ !

والله لو فعلتم ذلك ، ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد !.. دبروا فيه رأيا غير هذا .

قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك ، تفرّق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا .. فرضوا منا بالعقل[1] فعقلناه لهم .

قال : فقال الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل . هذا الرأى لا رأى غيره . فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

قال : فأتى جبريلُ عليه السلام رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه .

قال : فلما كانت عتمة الليل ، اجتمعوا على بابه ، يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه .

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، قال لعلىّ ابن أبى طالب :

---

(١) العقل : الدية .

« نم على فراشى وتسجَّ[1] ببُردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه . فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى بُرده ذلك إذا نام .

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب فى يده ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من « يس » : ﴿ يسۤ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ . لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . (يس : ١ ـ ٩)

حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته . فأتاهم آتٍ فأخبرهم بخروج محمد ، وبما فعل بهم !..

قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فإذا عليه تراب !.. ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًّا على الفراش متسجيا بُبرْد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائماً عليه بُرْده .

فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . فقام علىّ رضى الله عنه من الفراش ، فقالوا : والله لقد كان صدَقنا الذى حدثنا .

---

(١) تسجّ ، بفتح التاء والسين والجيم المشددة : تغطّ .

وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن فى ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ . (الأنفال : ٣٠)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ[1] ﴾ . (الطور : ٣٠ ، ٣١)

٥ — رب محمد صلى الله عليه وسلم يحفظه من سُراقة بن مالك :

عن سُراقة بن مالك بن جُعشم ، قال :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرًا إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن ردّه عليهم .

قال : فبينا أنا جالس فى نادى قومى ، إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت رَكَبَةً ثلاثة مروا علىّ آنفا ، إنى لأراهم محمدًا وأصحابه .

قال : فأومأت إليه بعينى أن اسكت ، ثم قلت : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم . قال : لعلّهُ . ثم سكت . قال : ثم مكثت قليلا ، ثم قمت فدخلت بيتى ، ثم أمرتُ بفرسى فَقِيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرتُ بسلاحى فأخرج لى من دُبُر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى[2] ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضرُّه » .

---

(١) ابن هشام بتصرف : جـ ٢ ص ٣٣٣ ، ٣٣٤

(٢) اللأمة : ما يلبس عند الحرب .

قال : وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة الناقة ، قال : فركبت على أثره .. فبينما فرسى يشتد بى ، عثر بى ، فسقطت عنه . قال : فقلت : ما هذا ؟ قال : ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره « لا يضرُّه » . قال : فأبيت إلا أن أتبعه فركبت فى أثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضرُّه » . فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار ، فعرفت — حين رأيت ذلك — أنه قد منـع منى ، وأنه ظاهر ، فناديت القوم فقلت : أنا سُراقة ابن جُعشم . انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم[1] ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : « قل له : وما تبتغى منا ؟ » فقال لى أبو بكر ذلك ، قلت : تكتب لى كتاباً يكون آية بينى وبينك قال : « اكتب له يا أبا بكر[2] » .

* * *

٦ — بعض آيات من القرآن الكريم تتحدث
عن حفظ الله لرسوله صلى الله عليه وسلم :

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

(المائدة : ٦٧)

---

(١) لا أطلب إساءتكم . (٢) ابن هشام بتصرف : ج ٢ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩

وقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ . (الطور : ٤٨)

وقال تعالى : « أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .
(الزمر : ٣٦)

٧ — الله عز وجل يمنع رسوله
صلى الله عليه وسلم من أعدائه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة ، فقال لهم : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ[١] » .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلا ، اختار له أصحابه شجرةً يَقِيل تحتها . .

فأتاه أعرابى فاخترط سيفه . ثم قال : من يمنعك منى ؟

فقال : « اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ !.. »

فأرعدت يد الأعرابى وسقط سيفه ، وضرب برأسه الشجرة ، حتى سال دماغه . فنزلت الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ[٢] ﴾ .

وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام وقع له مثلها فى غزوة غطفان — بذى أمَر — مع رجل اسمه دعثور بن الحارث ، وأن الرجل أسلم ، فلما رجع إلى قومه الذين أغروه — وكان سيدهم وأشجعهم — قالوا له : أين ما كنتَ تقول ، وقد أمكنك ؟ .

(١ ، ٢) الشفا ، للقاضى عياض : جـ ١ ص ٢٩٠

فقال : إني نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع في صدري ، فوقعت لظهري ، وسقط السيف ، فعرفت أنه ملك ، وأسلمت .

قيل : وفيه نزلت : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَهَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ[1] ﴾ .

وفي رواية الحارث : أن عورث بن الحارث المحاربي أراد أن يفتك بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يشعر به إلا وهو قائم على رأسه مُنتضياً سيفه !..

فقال : « اَللَّهُمَّ اكْفِنِيهِ بِما شِئْتَ » .

فانكب من وجهه من زُلّخة[2] بين كتفيه ، وندر سيفه من يده .

وقيل : كان صلى الله عليه وسلم يخاف قريشاً ، فلما نزلت هذه الآية : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ .. ﴾ إلخ الآية استلقى . ثم قال : « مَنْ شاءَ فَلْيَخْذُلْنِي » .

وذكر ابن إسحاق أن حمّالة الحطب لما بلغها نزول قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، وذكرها بما ذكرها الله مع زوجها من الذم . أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، وفي يدها فِهر[3] من حجارة . فلما وقفت عليهما ، لم تر إلا أبا بكر !.. وأخذ الله تعالى ببصرها عن نبيه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) المائدة : ١١ (٢) والزلخة : بضم الزاى وفتح اللام المشددة : وجع الظهر . (٣) الفهر : الحَجَر قدر ما يملأ الكف .

فقالت : يا أبا بكر : أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى .
والله لو وجدته ، لضربت بهذا الفهر فاه !.

وعن الحكم بن أبى العاص ، قال :

تواعدنا على النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا رأيناه سمعنا صوتاً خلفنا ، ما ظننا أنه بقي بتهامة أحد .. فوقعنا مغشياً علينا !..

فما أفقنا حتى قضى صلاته ، ورجع إلى أهله .

ثم تواعدنا ليلة أخرى ، فجئنا حتى إذا رأيناه ، جاءت الصفا والمروة ، فحالت بيننا وبينه !..

وجاء فيما ذكر ابن إسحاق وغيره أن أبا جهل جاء النبيّ صلى الله عليه وسلم بصخرة وهو ساجد .. وقريش ينظرون ليطرحها عليه ؛ فلزقت بيده ، ويبست يداه إلى عنقه ، وأقبل يرجع القهقرى إلى خلفه ! ثم سأله أن يدعو له ففعل ، فانطلقت يداه !

وكان قد تواعد مع قريش بذلك ، وحلف لئن رآه ليدمغنّه .

فسألوه عن شأنه ، فذكر أنه : عرض لى دونه فحل ، ما رأيت مثله قطّ ، همّ بى أن يأكلنى !..

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« ذَاكَ جِبْرِيلُ ، لَوْ دَنا لَأَخَذَهُ !.. » .

ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق فى قصته ، إذ خرج إلى بنى قريظة فى أصحابه ، فجلس إلى جدار بعض آطامهم [1] ، فانبعث عمرو ابن جحاش (أحدهم) ليطرح عليه رحًى ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم ، فانصرف إلى المدينة ، وأعلمهم بقصتهم .

---

(١) الآطام : الحصون المبنية بالحجارة .

وقد قيل : إنّ قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ .

نزلت فى هذه القصة .

وحكى السمرقندى :

أنه خرج إلى بنى النضير يستعين فى عقل [١] الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية . فقال له حيّ بن أخطب : اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا .

فجلس النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

وتآمر حيّ مع قومه على قتله .

فأعلم جبريلُ عليه السلام النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك .

فقام كأنه يريد حاجته حتى دخل المدينة .

وذكر أهل التفسير معنى حديث أبى هريرة رضى الله عنه :

أن أبا جهل وعد قريشا لئن رأى محمدا يصلى ليطأنّ رقبته .

فلما صلى النبى صلى الله عليه وسلم أعلموه .. فأقبل .. فلما قرب منه ولّى هاربا ، ناكصا على عقبيه ، متقيا بيديه .

فسئل . فقال : لما دنوت منه ، أشرفت على خندق مملوء نارا ، كدت أهوى فيه ، وأبصرت هولا عظيما ، وخفق أجنحة قد ملأت الأرض !.. فقال صلى الله عليه وسلم :

« تِلْكَ الْمَلائِكَةُ ، لَوْ دَنا لَاخْتَطَفَتْهُ : عُضْوًا عُضْوًا [٢] » .

---

(١) عقل : أى دية .

(٢) رواه أحمد ومسلم وغيرهما ـ ابن كثير : ج ٤ ص ٥٣٩

ثم أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ، إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى . أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى . أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى . كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (١) .

ويروى أن شيبة بن عثمان الحجبي أدركه يوم حنين .. وكان حمزة قد قتل أباه وعمه . فقال : اليوم أدرك ثأرى من محمد .

فلما اختلط الناس ، أتاه من خلفه ، ورفع سيفه ليصبه عليه .

قال : فلما دنوتُ منه .. ارتفع إلىّ شُواظ من نار أسرع من البرق .. فوليت هاربا !.. وأحسّ بى النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعانى . فوضع يده على صدرى .. وهو أبغض الخلق إلىّ .. فما رفعها : إلا وهو أحب الخلق إلىّ !.. وقال لى : « أُدْنُ فَقَاتِلْ . »

فتقدمت أمامه أضرب بسيفى وأقيه بنفسى ، ولو لقيت أبى تلك الساعة لأوقعت به دونه !

وعن فضالة بن عمرو ، قال : أردت قتل النبى صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، وهو يطوف بالبيت ..

فلما دنوت منه قال : « أفضالة ؟ »

قلت : نعم .

---

(١) سورة العلق : ٦ – ١٩

قال : « ما كُنْتَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ ؟ »

قلت : لا شيء .

فضحك واستغفر لى ، ووضع يده على صدرى ، فسكن قلبي !

فوالله ما رفعها ، حتى ما خَلَقَ الله شيئا أحبّ إلىّ منه ! .

ومن مشهور ذلك : خبر عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ، حين وفدا على النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان عامر قال له : أنا أشغل عنك وجه محمد ، فاضربه أنت .. فلم يره فعل شيئا .. فلما كلمه فى ذلك ، قال له : والله ما هممت أن أضربه إلا وجدتك بينى وبينه ! أفأضربك ؟ (١)

ومن ذلك نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر ، كما قال صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم !..

ويروى أن زينب بنت الحارث اليهودية أخت مرحب ذبحت عنزا لها وطبختها وسمّتها .. فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب وانصرف إلى منزله ، وجد زينب عند رحله .. فقدمت له الشاة هدية .. فأمر بها فوضعت بين يديه .. وتقـــدم هو وأصحابه ليأكلوا .. فتناول الذراع .. وتناول بشر بن البراء عظما ..

وانتهش (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ازدرد ، وقال :

« كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، فَإِنَّ هٰذِهِ الشَّاةَ
تُخْبِرُنِى أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ !.. » .

---

(١) هذه النصوص جميعها من كتاب « الشفا » للقاضى عياض . بتصرف من ص ٢٩٠ ـ ٢٩٦

(٢) انتهش : أى قضم .

فقال بشر بن البراء :

والله يا رسول الله ، وجدت ذلك من أكلتى التى أكلت !..

فما منعنى أن ألفظها إلا كراهية أن أنغص عليك طعامك !..

فلم يَرِمْ[1] بشر من مكانه حتى تغير ، ثم مات !..

ودعا رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم زينب ،

وقال : « سَمَمْتِ الذِّراعَ ؟ »

قالت : مَنْ أَخْبَرَكَ ؟ قال : « الذِّراع . »

قالت : نعم . قال : « وَما حَمَلَكِ عَلَى ذٰلِكِ ؟ »

قالت : قتلتَ أبى وعمى وزوجى ، ونلتَ من قومى ما نلتَ ..

فقلت : إن كان نبيًّا ، فستخبره الشاة . وإن كان ملكا ، استرحنا منه[2] .

---

(١) يرم : أى يبرح . (٢) إمتاع الأسماع : ص ٣٢١

محمد : الداعى .. صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا[1] ﴾ .

اتفقت أحوال العالم على انتظار الرسالة ، واتفقت أحوال محمد صلى الله عليه وسلم على ترشيحه لتلك الرسالة ! .

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد ، ولا تتفق معها الوسائل التى تؤدى بها رسالته على أحسن الوجوه !..

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ، ثم لا يظهر الرسول !..
وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح ، وفى البيئة الصالحة ، ثم لا تتهيأ له الصفات التى يتم بها أداء الرسالة !..

ولكن الذى اتفق فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق . وكان المعجزة التى تفوق المعجزات ، لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها ، وتوافق تلك الأجزاء جميعها مما يقبله العقل قبولا سائغاً بغير عنت ولا استكراه !.. فكان محمد صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم مستكملا للصفات التى لا غنى عنها فى إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ ..

كانت له فصاحة اللسان واللغة ، وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة !.. وكانت له قوة الإيمان بدعوته !..

وكان فوق ذلك يتصف بالصبر والثبات على إنجاح هذه الدعوة ، حتى آتت ثمارها بإذن ربها !..

---

(١) الأحزاب : ٤٥

(٢) بتصرف . عبقرية محمد للعقاد : ص ٣٤

وإليك بعض التفصيل لما ذكر :

* * *

* فَصاحَتُه : صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب لسانا ، وأبينهم حجة ، وأقوامهم دليلا . يعلم لغة من بَعُد منهم ومن قَرُب ، ويخاطب كل قبيلة بلسانها ، ويجرى مع كل طائفة فى ميدان بيانها ا..

فصاحته إلى المنتهى ، وبلاغته أذهلت أرباب النهى (العقول) ، وجوامع كَلِمِه مأثورة ، وبدائع حكمه مشهورة ا..

جمع من الكلام رونق الحضارة وجزالة البداوة ، لأن مدده الوحى الذى لا يُدركه البصر ، ولا يُحيطون بشىء من علمه ا..

كان صلى الله عليه وسلم حلو المنطق حسن الترتيل ، كلامه بَيِّن يحفظه من جلس ، ويفهمه كل من سمع ، كأنما هو دُرَر منظومة ، لا فُضول فيه ولا تقصير ا..

قالت عائشة رضى الله عنها :

(ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَسْرُد كَسَرْدِكم هذا ؛ ولكن كان يتكلم بكلام بَيِّن فَصْل ، يحفظه من جلس إليه .)

وفى رواية أخرى : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث حديثا ، لو عدّه العادّ لأحصاه ا..)

ولهذا عجب أصحابه من فصاحة لسانه — صلى الله عليه وسلم — وكمال بيانه ، فقد قال له أبو بكر رضى الله عنه :

(لقد طُفتُ فى العرب ، وسمعت فُصَحاءهم ؛
فما سمعت أفصح منك ا.. فمن أدّبك ؟)

قال رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« أَدَّبَنِي رَبِّي ، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي . »

وقال عمر رضى الله عنه :

(يا رسول الله ، مالك أفصحنا ، ولم تخرج من بين أظهرنا ؟!)

قال عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام :

« كانَتْ لُغَةُ إِسْماعِيلَ قَدْ دَرَسَتْ ..

فَجاءَ بِها جِبْرِيلُ .. فَحَفِظْتُها »

وقال علىٌّ رضى الله عنه :

(ما سمعتُ كلمة غريبة من العرب ،

إلا وقد سمعتها من رسول الله ،

صلى الله عليه وسلم ! ..

وسمعته صلى الله عليه وسلم يقول :

« ماتَ حَتْفَ أَنْفِهِ » . .

وما سمعتها من عربى قط ! .)

وقال القاضى عياض فى الشفاء :

(ألقى الله عز وجل على كلامه المحبة وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ! . . وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى مُعاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت له قدم ، ولا بارت له حجة[1] !..)

---

(١) راجع الشفا . جـ ١ ص ٥٧ ، الوفا بأحوال المصطفى : جـ ٢ ص ٤٥٦ ، محمد المثل الكامل : ص ١٥

* * *

* الْقُدْرَةُ عَلَى تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ وَتَوْحِيدِ صَفِّ الْمُسْلِمِينَ :

كان رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم يَكُفُّ لسانه إلا فيما يعنيه ، ويؤلف بين أصحابه ولا يُنَفِّرهم ، ويكرم كريم كل قوم ، ويُوَلِّيه عليهم ، ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما فى الناس ، ويُحسِّن الحسن ويُقوِّيه ويُقبِّح القبيح ويُوهِنُه (يضعفه) ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملُّوا !..

لكل حال عنده عتاد (عدة) .. لا يقصر عن الحق ولا يتعدّاه ، الذين يَلُونه من الناس خِيارهم أفضلهم عنده : أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة : أحسنهم مواساة ومؤازرة .

وكان صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، يُعطى كلّ جلسائه نصيبه !..

لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه !..

من جالسه أو قاومه فى حاجة ، صابره حتى يكون هو المنصرف !.. ومن سأله حاجة لا يرده إلا بها أو بميسور من القول !

قد وسع الناس بحلمه وعطفه وشفقته ورحمته ، فصار لهم أبا ، وصاروا فى الحق عنده سواء !..

وكان صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم دائم البِشْر ، سهل الخُلق ، ليِّن الجانب ، ليس بِعَيَّاب ولا قدّاح ، يتغافل عما لا يشتهى .

قد ترك نفسه صلى الله عليه وسلم من ثلاث : المِراء (المُجادلة) ، والإكثار (من الكلام) وما لا يعنيه . .

وترك الناس من ثلاث : كان لا يذمّ أحداً ولا يعيبه ، ولا يطلب عَوْرة أحد ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه !..

وإذا تكلم ، أطرق جلساؤه ، كأن على رءوسهم الطير !..

فإذا سكت تكلموا .. لا يتنازعون عنده الحديث : من تكلم عنده ، أنصتوا له حتى يفرُغ .. حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك فيما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، قد صبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته ، ولا يقطع على أحد حديثه[1] !..

قال تبارك وتعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ[2] ﴾ .

قال علىٌّ رضى الله عنه :

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس يداً ، وأصدقهم حجة ، وألينهم عريكة (سلس الخلق) وأكرمهم عشرة !..

من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه[3] !)

وعن أسماء رضى الله عنها قالت : لما دخل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم مكة واطمأن وجلس فى المسجد ، أتاه أبو بكر بأبى قحافة .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« يا أبا بكر : ألا تركت الشيخ ؟ أنا الذى أمشى إليه . »

قال : يا رسول الله . هو أحق أن يمشى إليك ، من أن تمشى إليه .

---

(١) بتصرف : الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى جـ ٢ : ص ٤٦٦ .

(٢) آل عمران : ١٥٩

(٣) الوفا بأحوال المصطفى جـ ٢ ص ٤٦٦

فأجلسه رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضع يده على قلبه ثم قال : « يا أَبا قُحافَةَ . أَسْلِمْ تَسْلَمْ »

قالت : فأسلم ، وشهد شهادة الحق [١] .

وقال قيسُ بن أبى حازم : أتى رجلٌ النبيّ صلى الله عليه وسلم . فلما قام بين يديه استقبلته رِعدة (أصابه اضطراب) .

فقال له النبىُّ صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ مَلِكًا .

إِنَّما أَنا ٱبْنُ ٱمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كانَتْ تأْكُلُ الْقَدِيدَ » [٢]

وعن أنس رضى الله عنـــه : أن امرأة كان فى عقلها شىء ، فقالت : يا رسول الله ، إن لى إليك حاجة .

قال صلى الله عليه وسلم : « يا أم فلان . خُذى فى أىّ طريقٍ شِئْتِ ، قومى فيه حتى أقومَ معك . »

فخلا معها (وقف معها فى الطريق العام) رســول الله صلى الله عليه وسلم يُناجيها (يتحدث معها) حتّى قضت حاجتها [٣] !..

قال ابن أبى أوفى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأنف ولا يستــكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين ، فيقضى له حاجته !..[٤]

وقال ابن شهاب :

حدثنا ســـعيد بن المسيب أن صفوان بن أبى أمية قال :

والله لقد أعطانى (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) ما أعطانى وإنه لأبغض الخلق إلىَّ !.. فما زال يُعطينى حتّى إنه لأحب الخلق إلىّ[٥]!.

---

(١) حياة الصحابة جـ ١ ص ٦٦

(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) الوفا بأحوال المصطفى جـ ٢ ص ٤٣٧

ويروى أن أعرابياً جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه شيئاً . . فأعطاه .. ثم قال صلى الله عليه وسلم : « أحسنتُ إليك ؟ »

قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قام ودخل المنزل وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئاً ، ثم قال له : « أحسنتُ إليك ؟ »

قال : نعم . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال صلى الله عليه وسلم : « إنك قلت ما قلت ، وفى نفس أصحابى من ذلك شىء . . فإن أحببت ، فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يدى ، حتى يذهب ما فى صدورهم عليك . »

قال : نعم .. فلما كان الغد أو العشى ، جاء . .

فقال صلى الله عليه وسلم : « إن هـذا الأعرابى قال ما قال ، فزدناه . فزعم أنه رضى : أ كذلك ؟ » .

قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال صلى الله عليه وسلم : « مَثَلِي ومَثَلُ هٰذا ، مَثَلُ رجُلٍ له ناقةٌ شردتْ عليه . . فاتبعَها الناسُ . . فلم يزيدُوها إلا نفوراً . . فناداهم صاحبها : خلُّوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها منكم وأعلم . . فتوجّه لها بين يديها ، فأخذ لها من قُمام الأرض ، فردّها حتى جاءت واستناخت ، وشـدّ عليها رَحْلَها واستوى عليها . وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه ، دخل النار [1] . »

---

(١) الشفا : جـ ١ ص ٩٦

* * *

* حِرْصُهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِسْلَامِ قَوْمِهِ ، وَصَبْرُهُ عَلَى تَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ :

وقال الله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ طٰه ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى (١) ﴾ .

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير الآية الأولى :

هذه الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حُزنه على المشركين ، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه ، كما قال تبارك وتعالى :

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ .

وَقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

باخع : أى مُهلك نفسك بحزنك عليهم ، قال مجاهد : لا تأسف عليهم ، بل أبلغهم رسالة الله .. فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضلُّ عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات (٢) .

وقال الإمام أبو السعود فى تفسير الآية الثانية :

إنها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب !..

---

(١) طه : ١ ، ٢

(٢) الشفا : جـ٣ ص ٩٢

فإن الشقاء شائع فى هـــذا المعنى (معنى التعب) أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مُـكابدة الشدائد فى مُقاومة العُتاة ومُحاورة الطُّغاة ، وفرط التأسف على كفرهم به ، والتحسر على أن يؤمنوا ، بل للتبليغ والتذكير ، وقد فعلتَ .. فلا عليك إن لم يؤمنوا بعد ذلك(١).

لقد بعث الله رسولنا سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم من قوم ، عاش معهم أربعين عاما قبل البعثـــة ، وعرفوا عنه كل شىء ؛ حتى شهدوا له بكرم الأخلاق ، وصدق الحديث ، والأمانة والوفاء وغيرها ، كما عرفوا أنه من أعلاهم نسبا ، وأكرمهم حسبا !. ولـكنه حين دعاهم إلى دين لم يألفوه ، ومنهج فى الحياة لم يجـدوا عليه آباءهم ، وقفوا منه موقف المـكابر المعاند المستكبر !.. وحاولوا أن يغيروا رأى الناس فى أخلاقه الكريمة ؛ فاتهموه بالكذب وبالسحر وبالجنون !.. إلخ

واعتدوا عليه كثيرا ، ولـكنه ــ مع ذلك كله ــ كان يعفو ويصفح ! . ويحزن على كفرهم ، ويصبر على طول عنادهم وإيذائهم صبرا ، عزّ مثله فى المُرسلين أنفسهم !

وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه أن يهاجر من شاء منهم إلى أرض غير مكة ، ليأمنوا على أنفسهم ودينهم .. وفعـلا : هاجر عدد منهم إلى بلاد الحبشـــة أول الأمر ، ثم هاجروا إلى المدينة .. أما هو صلى الله عليه وسلم : فـكان يتحمل كل ما يأتى من قومه من من إيذاء وعنت ، ثم ينطلق كأن شيئا لم يحدث ، فيعرض نفسـه على القبائل وعلى الأفراد والجماعات فى موسم الحج وغيره !..

---

(١) الشفا : جـ ٣ ص ٢٩٦

وظل كذلك حتى أمره الله بالهجرة إلى المدينة ، بعد أن آمن منها جماعة من الأنصار ، وفتحت أبوابها مرحبة بالدين الجديد .

وإليك أمثلة مما لقيه صلى الله عليه وسلم من قومه ، ومع ذلك كان الحريص على إسلامهم ، الصابر على إيذائهم !.

وصدق الله العظيم القائل :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١) ﴾ .

عن طارق بن عبد الله المُحاربى رضى الله تعالى عنه ، قال :

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، مرة بسوق ذى المجاز ، وأنا فى بِياعة لى .. فمرّ وعليه حلة حمراء ، وهو ينادى بأعلى صوته :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قُولُوا :

لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ـ تُفْلِحُوا . »

ورجل يتبعه بالحجارة قد أدمى كعبيه وعرقوبيه !! وهو يقول : يا أيها الناس ، لا تطيعُوه ، فإنه كذاب ..!!

قلت : من هذا ؟ قالوا : غلام من بنى عبد المطلب .

قلت : فمن هـذا الذى يتبعه يرميه ؟

قالوا : عمه عبد العزى ، وهو : أبو لهب (٢) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال :

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين ، يتبع الناس فى منازلهم ، بعكاظ ومجَنّة ، وفى المواسم بمنى ، وهو يردِّد :

---

(١) التوبة : ١٢٨ (٢) الوفا بأحوال المصطفى : جـ ١ ص ١٨٢

« مَنْ يُؤْوِينِي ؟!! مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟! »

حتى إن الرجل ليخرج من اليمن ، أو من مصر ، فيأتيه قومه ، فيقولون : احذر غلام قريش !.. لا يفتنك [1] !..

وقال عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت ، ويده فى يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وفى الحُجَر ثلاثة نفر جلوس : عقبة بن أبى معيط ، وأمية بن خلف ، وأبو جهل عمرو بن هشام .

فمرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

فلما حاذاهم ، أسمعوه بعض ما يكره !.

فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

فدنوت منه ، حتى كان بينى وبين أبى بكر ؛ فأدخل أصابعه فى أصابعى ، حتى طُفنا جميعاً .. فلما حاذاهم ، قال أبو جهل :

والله لا نُصالحك ، ما بلّ بحرٌ صوفةً .. (دلالة على عدم صلحهم له أبدا !!) وأنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا ذلك . »

ثم مضى عنهم ، فصنعوا به فى الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى إذا كان الشوط الرابع ، نهضوا !..

فوثب أبو جهل ، يريد أن يأخذ بمجمع ثوبه ! ..

فدفعتُ فى صدره ، فوقع !..

ودفع أبو بكر أميةَ بن خلف ..

ودفع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عقبةَ بن أبى معيط ..

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى : جـ ١ ص ١٨٢

ثم انفرجوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى انكشفوا عنه وتركوه) وهو واقف ، ثم قال لهم :

« أَمَا وَاللهِ لا تَنْتَهُنَّ ، حَتَّى يَحُلَّ عِقَابُهُ عاجِلًا . »

قال عثمان رضي الله عنه :

فوالله ما منهم رجل إلا وقد أخذه الخوف ، وجعل يرتعد ا .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« بِئْسَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ ! »

ثم انصرف إلى بيته ، وتبعناه ، حتى انتهى إلى باب بيته ، فوقف على السُّدَّة ، ثم أقبل علينا بوجهه ، ثم قال :

« أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - مُظْهِرٌ دِينَهُ ، وَمُتَمِّمٌ كَلِمَتَهُ ، وَناصِرٌ نَبِيَّهُ[1] . »

أخرج ابن جرير عن ابن عباس : أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان وغيرهم اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد ، فكلموه ، وخاصموه ؛ حتى تُعْذَروا فيه .

فبعثوا إليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ..

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً ، وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بداء .. وكان عليهم حريصاً ، يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم (أى مشقتهم وهلاكهم وفسادهم) حتى جلس إليهم ..

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى : جـ ١ ص ١٨٨

فقالوا : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك ، لنعذر فيك . وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعِبْتَ الدِّين ، وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرّقت الجماعة ، فما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ..

فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالا ،

جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا .

وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا ، سوّدناك علينا .

وإن كنت تريد ملكا ملّكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك (وكانوا يسمون التابع من الجن الرئى) فربما كان ذلك : بذلنا أموالنا فى طلب الطب ، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ! ..

فقال رسول الله صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« مابِي ما تَقُولُونَ ..

ما جِئْتُكُمْ بِما جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوالَكُمْ ،

ولا الشَّرَفَ فِيكُمْ ، وَلا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ .

وَلٰكِنَّ اللّٰهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا ،

وأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتابًا ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .

فَبَلَّغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ .

فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي ما جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ .

وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ ، أَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّٰهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ[1] . »

---

(١) حياة الصحابة : ج ١ ص ٧١

وقال ابن إسحاق :

لما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تناله منه فى حياة عمه أبى طالب .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه زيد بن حارثة إلى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه . ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ..

فخرج إليهم وحده .. فعمد إلى نفر منهم .. فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نُصرة الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ..

فقال له أحدهم وهو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة :

إن كان الله أرسلك ؟!

وقال الآخر : أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك ؟!

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدًا .. لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطرًا من أن أردّ عليك الكلام ! ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغى لى أن أكلمك !

فقام رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم من عندهم ، وقد يئس من خير ثقيف ، وقال لهم :

« إذْ فَعَلْتُمْ ما فَعَلْتُمْ ، فاكْتُمُوا عَنِّى ! . »

فلم يفعلوا .. بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة !..

فلما حدث ما حدث ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اَللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي

وَهَوانِي عَلَى النَّاسِ ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ !..

أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ !.. وَأَنْتَ رَبِّي !..

إِلَى مَنْ تَكِلُنِي : إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ؟!

أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ؟!..

إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبالِي ،

وَلَٰكِنْ عافِيَتُكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي ،

أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ ،

وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

مِنْ أَنْ تُنَزِّلَ بِي غَضَبَكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ !..

لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى .. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ[1] . »

روى البخاري بسنده المتصل إلى عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم :

(هل أتى عليك يوم ، كان أشد عليك من يوم أحد ؟)

فقال صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم :

« لقد لقيتُ من قومك !..

وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة : إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل ، فلم يُجبني إلى ما أردتُ ! .. فانطلقت على وجهي وأنا مهموم ، فلم أستفِقْ إلا وأنا بقرن الثعالب (مكان) ..

(١) سيرة ابن هشام : حـ ٢ ص ٢٨٥

فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلّتنى . .

فنظرتُ ، فإذا فيها جبريل . . فنادانى ، فقال :

(إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَما رَدُّوهُ عَلَيْكَ !..

وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبالِ ، لِتَأْمُرَهُ بِما شِئْتَ فِيهِمْ !)

فنادانى مَلَكُ الجبال ، فسلّم علىّ ، فقال :

(يا مُحَمَّدُ ، ذٰلِكَ لَكَ :

إِنْ شِئْتَ أُطْبِقُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ[1] .)

فقال النبى صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ :

مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ ، وَلا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا[2] . »

ولما منعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخول مكة زمن الحديبية ، قال صلوات الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« يا ويْحَ قريش ! . . لقد أكلتهم الحربُ . !

فماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب ؟ !

فإن أصابونى ، كان الذى أرادوا !..

وإن أظهرنى الله عليهم ، دخلوا فى الإسلام وافرين ! .

وإن لم يقبلوا قاتلوا وبهم قوة ! . فما تظن قريش ؟

فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله ،

حتى يُظهرنى الله أو تنفردَ هذه السالفة[3] ! . . »

---

(١) الجبلين (٢) الروض الأنف : جـ ١ ص ٢٦٢

(٣) يعنى : أو تقطعَ رقبتى ـ حياة الصحابة : جـ ١ ص ٣٨

* * *

* جِهادُهُ صَلَّى اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَبِيلِ عَقِيدَتِهِ :

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، ليفتح به قلوبًا غُلفًا ، وأعينًا عميًا ، وآذانًا صمًا ، وجعله الله رحمة للعالمين !..

فكان أول من آمن به أهل بيته الأدنون :

روجه التي كانت أعلم الناس بحاله ..

وربيبه ابن عمه عليّ ، رضى الله عنه ..

وعتيقه زيد بن حارثة ، رضى الله عنه ..

وأول من بلغته دعـوته خارج بيته ، فعقلها وفقه سرها ، وأدرك حقيقتها وفضلها – من أول وهلة – فقبلها بلا تلبُّث :

أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ..

وما زال جمهور قومه صلى الله عليه وسلم يُؤذونه ويصدّون الناس عنه ويفتنون من آمن به – وأكثر من آمن به من الضعفاء – بأنواع التعذيب ، حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك ديارهم ووطنهم ! ..

ثم هاجر ، هو صلى الله عليه وسلم بعد ظهور دعوة الإسلام بعشر سنين(١) ..

ثم صار هؤلاء المشركون يتبعونهم إلى مهاجرهم : يقاتلونهم فيه .. فأذن الله لهم فى قتالهم ، بقوله تبارك وتعالى :

---

(١) لأن الدعوة بدأ ظهورها بعد ثلاث سنوات من البعث ، فتكون مدة إقامته صلى الله عليه وسلم فى مكة ثلاث عشرة سنة .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبُّنَا اللَّهُ(١) ﴾ .

وبين اللهُ حكمة الإذن بالقتال : وأنه شُرِعَ لأنهم مظلومون لا ظالمون !.. وأنه لولا هذا الدفاع ، لغلب أهل الشرك والباطل ، والخرافات والمنكرات ، على أهل الإيمان والحق ، والعدل والفضائل ، وهدموا بيوت الله تعالى ، لإبقاء هياكل الأصنام ، والأوثان(٢) .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٣) ﴾ .

وشدَّد الله سبحانه فى الأمر بالجهاد ، بعد أن كان الأمر قبل ذلك بالصبر والتحمل ؛ لأن الجهاد إنما شُرع حماية للدين وللمستضعفين وللوطن الإسلامى الجديد : المدينة وما يتبعها ..

ولذلك قال تبارك وتعالى مُخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ(٤) ﴾ .

---

(١) سورة الحج : ٣٩ ، ٤٠ (٢) المنار : جـ ١٠ ص ٧٧

(٣) سورة الحج : ٤٠ (٤) سورة الأنفال : ٦٥

وقال الله تبارك وتعالى :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (١) ﴾ .

قال صاحب المنار : ويؤخذ من هذه الآية أن الله تعالى كلف نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقاتل الكافرين ، فالذين قاوموا دعوته بقوتهم وبأسهم ، وإن كان صلى الله عليه وسلم وحده ! .

وذلك يدل على أنه أعطاه من الشجاعة ما لم يعط أحداً من العالمين !.

وسيرته صلى الله عليه وسلم تدل على ذلك :

فهو قد تصدى لمقاومة الناس كلهم بدعوته إلى ترك ما هم عليه من الضلال ، واتباع النور الذى أنزل معه ، ولما قاتلوه قاتلهم ، وقد انهزم أصحابه عنه مرة ، فبقى ثابتاً لا يتزلزل (٢) !..

ولقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم كلها جهاداً فى سبيل الله ، فجاهد بالكلمة كفار مكه قبل الهجرة ، ومنافقى المدينة بعدها ، وقاتل بالسيف أعداء الحق والنور ، والعدل والخير ، الذين افتروا عليه وحاولوا القضاء على دعوته وعلى من آمن بها ، ملتزماً فى ذلك النهج الذى رسمه الله سبحانه وتعالى له بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ .

---

(١) سورة النساء : ٨٤ (٢) المنار : جـ ٥ ص ٣٠٥

(٣) سورة التوبة : ٧٣

وقضى صلى الله عليه وسلم فترة المدينة كلها . إما مرابطاً وراء سرية ، وإما قائداً لغزوة ، حتى دفع الباطل بالحق ، فكلمة الله تبارك هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .. وتحقق قوله تبارك وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ[1] ﴾ .

وإننا لتأخذنا الدهشة إذا عرفنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرغم من أن إقامته بالمدينة لم تزد على عشر سنوات ، فإنه مع ذلك خرج بنفسه مجاهداً فى سبع وعشرين غزوة ، وأرسل أصحابه مجاهدين ومقاتلين فى سبيل الله ثمانياً وثلاثين مرة ! . .

وبذلك ندرك أنه صلى الله عليه وسلم قضى كل حياة البعثة مجاهداً ومقاتلا ، حتى نزل عليه قوله تبارك وتعالى :

﴿ .. ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا[2] ﴾ .

---

(١) سورة التوبة : ٣٣ .. ومعنى الإظهار هنا : الغلبة والقوة

(٢) سورة المائدة : ٣

* * *

* مُعْجِزَاتُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مقـــــدمة :

أيّد الله سبحانه وتعالى نبيه بالآيات البينات ، والمعجزات الباهرات ، لتكون شاهدة على ثبوت نبوته ، وصدق رسالته ، إلزاماً للمعاندين المكابرين بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، وتثبيتاً لقلوب أهل ملته ، الملبّين لدعوته والمصدقين لنبوته ، على محبتهم له ، وتصديقهم به ؛ فيزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، وإعلاماً لجميع الناس على تعظيم قدره ، ورفعة شأنه ، وسمو مكانته عند رب العالمين .

ومع أن الرسول صلى الله عليه وسلم من أكثر الرسل معجزة ، وأبهرهم آية ، وأظهرهم برهاناً ؛ فإنه إذا تأمل المتأمل فى سيرته العطرة ، فوجد براعة علمه ، ورجاحة عقله وحلمه ، وعظمة كماله وجميع خصاله ، وصواب فعاله ، وشاهد سمـوّه فى جميع أحواله : لم يَرْتَبْ لحظة واحدة فى صحة نبوته ، وصدق دعوته ..

وقد كفى هذا غير واحد فى إسلامه وإيمانه .

وقبل أن نتحدث عن معجزاته عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام ، يحسن بنا أن نعرف أن المعجزة هى : أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى ، سالم من المعارضة .

وهى . إما حسية وإما عقلية ، وأكثر معجزات أنبياء بنى إسرائيل كانت حِسّية ، لبلادتهم وقلة بصيرتهم ا.. وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية ، لفرط ذكائهم ، وكمال أفهامهم ، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خُصَّتْ بالمعجزة العقلية ، ليراها ذوو البصائر إلى يوم القيامة .

والمعجزات التى ظهرت على يد نبينا صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم ، منها ما نُقل إلينا متواترًا ، وعلمناه قطعاً كالقرآن الكريم ، فلا خلاف ولا مرية فى مجيىء النبى عليه — وآله وصحبه — الصلاة والسلام به ، وظهوره من قِبله ، واستدلاله بحجته ، وإن أنكر هذا معاند أو جاحد ، فهو كإنكاره وجود محمد عليه الصلاة والسلام فى الدنيا ! .

ومنها ما لم يبلغ درجة الضرورة والقطع ، وهذا النوع الأخير منه ما هو مشتهر منتشر ، رواه العدد الكثير ، وشاع الخبر به عند المحدِّثين والرواة ، ونقلته السِّيَر والأخبار ، كنبع الماء من بين أصابعه الشريفة .

ومنه ما رواه العدد اليسير ولم يشتهر اشتهار غيره ، لكنه إذا جمع إلى مثله ، اتفقا فى المعنى واجتمعا على الإتيان بالمعجز !..

ولكن أكثر المعجزات المأثورة عنه عليه — وآله وصحبه — الصلاة والسلام معلومة بالقطع[1] . وإليك بعضاً منها :

---

(١) من الشفا : ج ١ ، للقاضى عياض : ص ٢١٧ بتصرف .

١ — اَلْقُرْآنُ اَلْكَرِيمُ !..

وهو أشهر معجزاته عليه — وآله وصحبه — الصلاة والسلام ، وأسماها وأبقاها وأقواها فى الإعجاز على الإطلاق !.. جاء فريد الدهر فى فصاحة ألفاظه ، وبلاغة أسلوبه ، وجلال لفظه ، وروعة معناه ! واحتوى كثيرًا من الأسرار الإلهية الغامضة ، التى لم يكشف العلم — حتى القرن العشرين — إلا عن نزر يسير منها ! .

وأخبر عن الأمم السابقة ، وما حدث لهم فى حياتهم ! . .

وأنبأ عن وقائع بظهر الغيب لم تلبث أن جاءت كما أخبر به ، كما احتوى على التشريعات العادلة التى نيطت بها سعادة الدنيا وفوز الآخرة ! . .

والواقع أن وجوه إعجاز القرآن الكريم أكثر من أن تحصى وأعظم من أن يحيط بها جهد بشر ، كائنًا من كان !..

ولقد تحدّى النبى صلى الله عليه وسلم العرب به ، وهم أصحاب البلاغة والفصاحة وفرسانها ، أن يأتوا بمثل القرآن ، فعجزوا !

فتحداهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه ، فعجزوا ! . .

فتحداهم أن يأتوا بمثل سورة واحدة منه ، فعجزوا !..

وما أتوا من ذلك بمقال ، بل صبروا على الجلاد والقتل ، وتجرعوا كلمات الصغار والذل — وكانوا من شموخ الأنف بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارًا ولا يرضونه إلا اضطرارا — وما منهم إلا من جهد جهده واستنفد ما عنده فى إخفاء ظهوره وإطفاء نوره ؛ فما جاءوا من ذلك بشىء ، مع طول الأمد ، وكثرة العدد ، وتظاهر الوالد وما ولد ! !

وصدق الله العظيم ، القائل فى محكم تنزيله :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ،
عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ،
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[١] ﴾ .

والقرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة الباقية من سائر معجزات الأنبياء والرسل .

وسيظل كذلك إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها ! .

قال ابن الجوزى : إن معجزات الأنبياء ذهبت بموتهم . .

ولو قال مُلحد اليوم : أى دليل على صدق محمد وموسى ؟

فقيل له : محمد شُقَّ له القمر ، وموسى شق له البحر .

لقال : هذا محال .

فجعل الله هذا القرآن معجزاً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ليبقى أبداً ، ليظهر دليل صدقه بعد وفاته ، وجعله دليلا على صدق الأنبياء ، إذ هو مُصَدِّقٌ لهم ومخبر بحالهم[٢] . .

ولم تكن معجزة القرآن ـ رغم عظمتها ـ هى المعجزة الوحيدة لنبينا صلى الله عليه وسلم ، بل كانت له معجزات حِسِّية كثيرة ، لا بدّ لنا من الوقوف على بعضها :

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨

(٢) الوفا بأحوال المصطفى : جـ ١ ص ٢٧١

٢ - حَنِينُ الْجِذْعِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وتعالَى عَلَيْهِ وآلِه وصَحْبِه وَسَلَّمَ ا.. :

قال جابر بن عبد الله الأنصارى ، رضى الله عنه :

كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخـل ..

فـكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها .

فلما صُنع له المنبر ، سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار(١) .

وفى رواية أنس :

حَتَّى أُرْتَجَّ المَسْجِدَ بِخُوارِهِ ا.

وفى رواية سهل :

وكثر بكاء الناس لما رأوا ما به ، حتى جاء النبي صـلى الله عليه وسلم ، فوضع يده عليه حتى سكت .

زاد غير جابر :

فقال النبي عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام :

« إِنَّ هٰذا بَكَى لِما فُقِدَ مِنَ الذِّكْرِ . »

وزاد غيره :

« والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ : لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ ، لَمْ يَزَلْ هٰـكَذا إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ ا. »

تحزَّنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) العشار ، بكسر العين : جمع عُشَراء على فقهاء ، وهى الناقة التى أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر .

وفى حديث بريدة : فقال النبي عليه الصلاة والسلام للجذع :

« إِنْ شِئْتَ أَرُدُّكَ لِلْحائِطِ[1] الَّذِي كُنْتَ فِيهِ .

تَنْبُتُ لَكَ عُرُوقُكَ ، وَيَكْمُلُ خَلْقُكَ ،

وَيُجَدَّدُ لَكَ خُوصٌ وَثَمَرٌ !..

وإِنْ شِئْتَ أَغْرِسُكَ فِي الْجَنَّةِ ،

فَيَأْكُلُ أَوْلِياءُ اللهِ مِنْ ثَمَرِكَ ! »

ثم أصغى له النبي صلى الله عليه وسلم ، يستمع ما يقول ..

فقال [الجذع] :

(بَلْ تَغْرِسُنِي فِي الْجَنَّةِ ، فَيَأْكُلُ مِنِّي أَوْلِياءُ اللهِ ،

وَأَكُونُ فِي مَكانٍ لا أَبْلَى فِيهِ .)

فسمعه من يليه !..

ثم قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام : « قَدْ فَعَلْتُ . »

وقال عليه — وآله وصحبه — الصلاة والسلام :

« اِخْتارَ دارَ الْبَقاءِ ، عَلَى دارِ الْفَناءِ[2] . »

(رواه الترمذى بطرق مختلفة ، وقال : حسن صحيح .
ورواه الإمام أحمد . والبخارى ومسلم ، وقال الزرقانى فى المواهب : جـ ٥ ص ١٣٣ : إنه حديث متواتر تواتراً يفيد القطع .

---

(١) الحائط : البستان .   (٢) الشفا : جـ ١ ص ٢٥٨

٣ — انْقِيادُ الشَّجَرِ لَهُ صَلَّى اللّٰهُ تَبارَكَ وتَعالَى عَلَيْهِ — وآلِهِ وصَحْبِهِ — وَسَلَّمَ

عن جابر رضى الله عنه ، قال : سِرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى نزلنا وادياً أَفْيح[1] ..

فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى حاجته ..

فاتبعته بإداوة[2] من ماء ، فنظر الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلم ير شيئاً يستتر به ، فإذا شجرتان بشاطئ الوادى ، فانطلق الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما ، وأخذ بغصن من أغصانها ، فقال :

« اِنْقادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللّٰهِ . »

فانقادت معه كالبعير المخشوش[3] الذى يُصانع قائده ، حتى أتى الشجرة الأخرى ، فأخذ بغصن من أغصانها ، وقال :

« اِنْقادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللّٰهِ . »

فانقادت معه كذلك ، حتى إذا كان بالمنتصف مما بينهما ، لَأَمَ[4] بينهما ، فقال : « الْتَئِمَا بِإِذْنِ اللّٰهِ . » فالتأمتا ! .

قال جابر : فخرجت أُحضر[5] ، مخافة أن يحسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقربى ، فيبتعد ..

---

(١) أفيح : واسع . (٢) إداوة ، بالكسر : المَطهرة .

(٣) البعير المخشوش : المستحشة من النوق التى دقت أوظفتها من عظمها وكثرة شحمها ، وقد استحشها الشحم وأحشها .

(٤) لأم : أوصل .

(٥) الحُضْرَةُ (بضم الحاء) ارتفاع فى العَدْو .

فجلست أحدث نفسى ، فحانت منى لفتة : فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا ، وإذا الشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق !! ورأيت الرسول عليه الصلاة والسلام وقف وقفة ، فقال برأسه ، هكذا[1] ..

ثم أقبل صلى الله عليه وسلم ، فلما انتهى إلىّ ، قال :

« يا جابرُ : هَلْ رَأَيْتَ مقامى ؟ »

قلت : نعم يا رسول الله[2] .

٤ — إنْكِشافُ الْغَيْبِ لَهُ عليه الصلاة والسلام ! .

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوما ، فصلى على أهل أحُد صلاته على الميت ..

ثم انصرف إلى المنبر فقال :

« إنِّى فَرَطٌ[3] لَكُمْ ، وأنا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ ،
وإنِّى وَاللهِ لَأَنْظُرُ إلَى حَوْضِى الْآنَ ..
وإنِّى قَدْ أُعْطِيتُ مَفاتِيحَ خَزائِنِ الْأَرْضِ
ـ أَوْ ـ مَفاتِيحَ الْأَرْضِ ـ
وإنِّى واللهِ ما أَخافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِى ،
وَلٰكِنْ أَخافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنافَسُوا فِيها[4] . »

---

(١) قال برأسه : أى أشار برأسه إلى كل من الشجرتين .

(٢) رواه مسلم : التاج جـ ٣ ص ٣٠١

(٣) أى سابقكم إلى الآخرة .

(٤) رواه الشيخان · التاج جـ ٣ ص ٣٠٦

ففي هذا الحديث الشريف ، نجد أن الرسول عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام قد انكشف له الغيب في أمور :

أولها : أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن أمته ستملك خزائن الأرض وخيراتها . .

وقد حدث ذلك !..

ثانيهما : أنه صلى الله عليه وسلم خاف على أمته من التنافس في الدنيا ، والتضارب عليها ..

وقد حدث ذلك ! .

ثالثها : أنه رأى حوضه عليه الصلاة والسلام رؤية بصرية ! .

وعن أسامة رضي الله عنه ، قال :

أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أُطُمٍ[1] من الآطام ، فقال :

« هَلْ تَرَوْنَ ما أَرَى ؟

إِنِّي أَرَى الْفِتَنَ تَقَعُ

خِلالَ بُيُوتِكُمْ مَوَاقِعَ الْقَطْرِ[2] !.. »

ففي هذا الحديث انكشف له الغيب في وقوع الفتن بالمسلمين ، وكذلك كان ، فقد عمت الفتنة بعده كل بيت من بيوت المسلمين ، وكان أولها : قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

---

(١) الأطم ، بضمتين : القصر ، وكل حصن مبني بحجارة ، وكل بيت مربع مسطح .

(٢) رواه الشيخان : التاج : جـ ٣ ص ٣٠٧

٥ — سُرْعَةُ إجابَةِ دُعائِهِ عليه الصلاة والسلام !..

عن أنس رضى الله عنه ، قال :

أصاب المدينة قحط [١] على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يخطب يوم الجمعة ، إذ قام رجل فقال : يا رسول الله ، هلكت الكراع [٢] هلكت الشاء !! فادع الله أن يسقينا .

فمدّ النبي عليه الصلاة والسلام يديه ، فدعا

قال أنس ، رضى الله عنه :

وإن السماء كمثل الزجاجة ، فهاجت ريح أنشأت سحاباً ، ثم اجتمع ، ثم أرسلت السماء عزاليها [٣] ، فخرجنا نخوض الماء ، حتى أتينا منازلنا ، فلم تزل تمطر إلى الجمعة الأخرى !

فقام إليه ذلك الرجل أو غيره ، فقال :

يا رسول الله ، تهدمت البيوت ، فادع الله أن يحبسه

فتبسم النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« حَوالَيْنا ، ولا عَلَيْنا . »

فنظرت إلى السماء تصدّع [٤] حول المدينة ، كأنه إكليل [٥] .

---

(١) قحط : جدب .   (٢) الكراع ، بالضم : الخيل .

(٣) عزاليها : جمع عزلاء ، وهى فم القربة الأسفل .
والمراد : نزل الماء كأفواه القرب .

(٤) تصدع بتشديد الدال ، والمراد : تفرقة السحاب .

(٥) المراد أنه صار حول المدينة كأنه عصابة تزينها —
رواه الخمسة إلا الترمذى — التاج ج ٣ ص ٣٢

٦ — تَسْبِيحُ الطَّعامِ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ الصلاةُ وَالسَّلامُ !..

عن عبد الله ، رضى الله عنه قال :

كنا نعدّ الآيات بركة ، وأنتم تعدّونها تخويفاً .

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فقلّ الماء .

فقال صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم :

« أُطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ ماءٍ[1] . »

فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ..

فأدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فى الإناء ، ثم قال :

« حَيَّ[2] عَلَى الطَّهُورِ الْمُبارَكِ ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللهِ . »

فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه الشريفة !..

ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام ، وهو يأكل[3] !..

٧ — تَكْثِيرُ الْماء بِبَرَكَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ !..

عن البراء رضى الله عنه ، قال :

كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة (والحديبية بئر) فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة ، فجلس النبى صلى الله عليه وسلم على شفير[4] البئر ، فدعا بماء ، فمضمض ، ثم مجَّه فى البئر ، فمكثنا غير بعيد ، ثم استقينا حتى روينا وروت ، أو — صدرت — ركائبنا[5] .

---

(١) فضلة : بقية . (٢) حى على الطهور : أقبلوا عليه .

(٣) رواه البخارى — التاج : جـ ٣ ص ٢٩٩

(٤) شفير : حافة . (٥) التاج : جـ ٣ ص ٢٩٣

٨ — فِي شَكْوَى الْبَهَائِمِ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ !..

عن عبد الله بن جعفر ، رضى الله عنه ، قال :

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً حائطاً من حيطان الأنصار (بستان) ، وإذا جمل ، فلما رأى الجملُ الرسولَ عليه الصلاة والسلام : حَنَّ وذرفت عيناه .

فمسح الرسول عليه الصلاة والسلام سَرَاتَهُ وذِفْرَيه[1] . فسكن ..

فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صاحبُ الجمل ؟ »

فجاء فتى من الأنصار ، فقال : هو لى يا رسول الله .

فقال عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام :

« أَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هٰذِهِ الْبَهِيمَةِ ،

الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ؟

إِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ[2] . »

٩ — نَبعُ الْماءِ مِنْ بَيْنِ أَصابِعِهِ الشَّرِيفَةِ !..

عن جابر رضى الله عنه قال : عطش الناس يوم الحديبية ، والنبى عليه الصلاة والسلام بين يديه ركوة[3] ، فتوضأ ، فجهش[4] الناس نحوه ..

---

(١) السراة : أعلى كل شيء . والذفران : مثنى ذفر ، وهو : ما من المقدّ إلى نصف القَذَال ، أو العظم الشاخص خلف الأذن .

(٢) تدئبه : تتعبه ـ أخرجه مسلم ـ الوفا : جـ ١ ص ٣٠١

(٣) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه .

(٤) فجهش الناس : أى أسرعوا متهيئين لأخذه .

فقال صلى اللهُ عليه وسلّم : « ما لَكُمْ ؟ »

قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ أو نشرب ، إلا ما بين يديك .

فوضع الرسول صلى الله عليه وسلم يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور — بين أصابعه — كأمثال العيون . فشربنا وتوضأنا !!

قيل : كم كنتم ؟

قال : لو كنا مائة ألف لكفانا .. كنا خمس عشرة مائة[1] .

١٠ — تَكْثِيرُ الطَّعامِ بِبَرَكَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ !..

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، قال :

عملنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخندق ..

وكانت عندى شُوَيْهة[2] غير سمينة ..

فقلت : لو صنعناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

فأمرت امرأتى ، فطحنت لنا شيئاً من شعير ، وصنعت لنا منه خبزاً ، وذبحت لنا تلك الشاة ، فشويناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما أمسينا وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم الانصراف عن الخندق .. قال : وكنا نعمل فيه نهاراً ، فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلنا .. قال : قلت : يا رسول الله ، إنى قد صنعت شويهة كانت عندنا ، وصنعنا معها شيئاً من خبز الشعير ، فأحِبُّ أن ينصرف الرسول صلى الله عليه وسلم معى إلى منزلى ، وإنما أريد أن ينصرف معى الرسول وحده ..

فلما قلت له ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : « نعم .. »

---

(١) رواه الشيخان . التاج : جـ٣ ص ٢٩٣ (٢) تصغير شاه .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم صارخاً ، فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت جابر .

قال : فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون . . فأقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الناس معه ، فجلس فأخرجنا إليه ، فبارك وسمى ثم أكل . . وتواردها الناس . . كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس ؛ حتى صدر أهل الخندق عنها(١) .

١١ — إِخْبارُهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بِالْمُغَيَّباتِ :

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه ، قال :

بينا أنا نائم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة(٢) . ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل . .

فقال صلى الله عليه وسلم :

« يا عَدِىُّ ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ ؟ »

قلت له : لم أرها ، وقد أنبئت عنها .

قال صلى الله عليه وسلم :

« فَإِنْ طالَتْ بِكَ حَياةٌ ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ(٣) تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ ، لا تَخافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ ! »

قلت — فيما بينى وبين نفسى — :

فأين دُعّار(٤) طيئ الذين قد سعّروا(٥) البلاد ؟

---

(١) أخرجاه — الوفا : جـ ١ ص ٢٧٤

(٢) الفاقة : الفقر

(٣) الظعينة : المرأة المسافرة

(٤) الدعر : الفساد .

(٥) سعر : هيج وألهب .

« وَلَئِنْ طالَتْ بِكَ حياةٌ ، لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى . »

قلتُ : كِسْرى بن هُرمز ؟

قال صلى الله عليه وسلم

« نَعَمْ .. ولَئِنْ طالَتْ بِكَ حَياةٌ ،

لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفَّيْهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ،

فَلا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهُ !..

وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ — يَوْمَ يَلْقاهُ —

وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمانٌ(١) يُتَرْجِمُ لَهُ !.

فيقول له :

[أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا ، فَيُبَلِّغَكَ ؟]

فيقول : بَلَى .

فيقول : [أَلَمْ أُعْطِكَ مالًا وَوَلَدًا ، وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ ؟!]

فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ ، فَلا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ !..

وَيَنْظُرُ عَنْ شِمالِهِ ، فَلا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ !..

فَاتَّقُوا النَّارَ ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ..

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ، فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ !. »

قال عدىّ : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت ، لا تخاف إلا الله !! وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى . ولئن طالت بك حياة ، لترينّ ما قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم(٢) .

---

(١) الترجمان : المفسر للسان .

(٢) رواه البخارى — التاج . جـ ٣ ص ٣٠٤

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إِذَا هَلَكَ كِسْرَى ، فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ .

وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ ، فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ ! .

وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ :

لَتُنْفِقُنَّ كُنُوزَهُمَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ(١) ! »

ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، فإن مملكة كسرى الفارسية ، ومملكة قيصر الرومانية ما لبثتا أن فتحت فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وغنم المسلمون منهما مغانم كثيرة .. واستخدمت كنوزهما فى سبيل الله عز وجل ! .

هذا ومن الملاحظات التى ننبه إليها : أننا لم نأت فى هذا الفصل بكل معجزاته عليه الصلاة والسلام ، فهى كثيرة جداً . كما أننا لم نستوعب كل الروايات التى وردت فى كل معجزة من معجزاته ؛ بل أشرنا إلى كل معجزة إشارة فيها الكفاية والغُنية ، واقتصرنا على عين الغرض ونصّ القصد ، والله الموفق والهادى للصواب .

---

(١) رواه الترمذى والبخارى ومسلم .

الخـــاتمة

(أحسنها الله تبارك وتعالى)

لا يخفى على كل ذى بصيرة أن غرس عقائد الدين فى قلوب الفتيان والفتيات ، واستمرارهم على أداء الواجبات الشرعية والفرائض الإسلامية ، لا يتأتى إلا إذا امتزجت بقلوبهم ، وتمكنت من سرائرهم ، وجنحوا بكليتهم إليها ، وشبوا من صغرهم عليها – أى من سن الطفولية الذى هو إبان القابلية – واستعداد النفوس إلى ما يلقى إليها ويغرس فيها ؛ وهو الأمر الذى به سعادة العالمين فى الدنيا والدين .. ولن يكون ذلك إلا بسرد بعض خصائص سيدنا رسول الله محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه – وآله وصحبه – وسلم ؛ فقد أجمعت الأمة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فرض عين ، لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ .

وفى الحديث الشريف :

« لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ : أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُما . »

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة ، فقال :

« أَحِبُّوا اللَّهَ لِما يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ ، وَأَحِبُّونِى لِحُبِّ اللهِ إِيَّاىَ . »

وما ألطف قول « حليمة » – رضى الله تعالى عنها – نظما :

بِأَغْنامِهِ سارَ الْحَبِيبُ إِلَى الْمَرْعَى
فَيا حُسْنَهُ راعٍ ، فُؤادِى لَهُ يَرْعَى
وَما أَمْلَحَ الْأَغْنامَ وَهْوَ يَسُوقُها
لَقَدْ آنَسَ الصَّحْرا وَأَوْحَشَ الرَّبْعا
مَلِيحٌ مُنِيرُ الْوَجْهِ ، شَمْسُ الضُّحَى لَهُ
غَدَتْ غُرَّةً ، وَاللَّيْلُ عادَ لَهُ فَرْعا
جَمِيلٌ عَلا وَجْهَ الْمَحاسِنِ وَجْهُهُ
كَأَنَّ بُدُورَ التِّمِّ ، قَدْ طُبِعَتْ بِهِ طَبْعا
أَقُولُ لَهُ إِذْ أَشارَ بِالْبَرِّ ماشِيًا
وَأَغْنامُهُ مِنْ حَوْلِهِ تَطْلُبُ الْمَرْعَى
عُيُونُكَ — يا راعِيَ الْحِمَى — قَتَلَتْ بِنا
فَقَوْمٌ بِها أَسْرَى ، وَقَوْمٌ بِها صَرْعَى
لَوْلاكَ — يا راعِيَ الْحِمَى — ما تَشَوَّقَتْ
نُفُوسٌ إِلَى بانِ الْعَقِيقِ وَلا الْجَزْعا
وَما أَنْتَ راعٍ لِلْمَواشِ ، وَإِنَّما
تَرْعَى الْوَرَى ، تُبْدِى لَها النَّفْلَ وَالشَّرْعا
أَما وَالَّذِى أَبْكَى وَأَضْحَكَ ، وَالَّذِى
أَماتَ وَأَحْيا ، وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى
لَقَدْ خابَ مَنْ يَسْعَى إِلَى بابِ غَيْرِكُمْ
وَضَلَّ الَّذِى يَوْمًا إِلَى غَيْرِكُمْ يَسْعَى

حَبِيبِي ، حَبِيبِي : أَنْتَ راعِي قُلُوبِنـــا
وَلَوْلاكَ ، يا مُخْتارُ ، ما عُرِفَ الْمَرْعَى

* * *

هذه هى بعض اللذائذ الرُّوحية التى تُعـــدّ بحق جزءًا من الأنوار المحمدية المختارة فى بعضٍ من شمائل من أحبّه الله واختاره صلى الله عليه وسلم !.. وبذلك يزداد إيمان المسلمين من الرجال والنساء ، لأن الإيمان ينقص ويزيد .. هذا من ناحيــة الآباء والأمّهات .. أما من ناحية الشباب على نوعيْه ، فكلما تأصّلت المحبة فى قلوبهم لسيدنا رسول الله ﷺ كلما حرَصوا على اتّباع شريعته .. لذا حاولتُ ـ جهد الطاقةِ ـ أن أضع هذا الـكتيّب فى هذا الشأن ، مع علمى أنه ينبغى لـكل مؤلف كتاب فى فن قد سُبق إليه ، ألّا يخلو كتابه من خمس فوائد وهى : استنباطه شيئًا كان مُعْضلًا ، أو جمع شىء كان متفرّقًا ، أو شرح شىء غامض ، أو حُسن نظم وتأليف ، أو إسقاط حشو وتطويل .

وأرجو ألّا يخـلو هـذا الـكتيّب من بعض هذه النواحى التى ذُكِرت ... ومما مرّ عليك ـ سيدى القـارئ ـ كنت أودّ ألّا أترك صغيرة ولا كبيرة من شأنه صلى الله عليه وسلم ! ..

ولـكن ذلك ليس فى الْمُـكْنَة ؛ فهذه الشمائل الشريفة لو أردت أن أجمع ـ ولو من كل كتاب كلمة واحدة ـ فلن يُسعفنى الزمان !..

جعل اللهُ هذه الـكلمات ـ فى حبيبه المصطفى ﷺ ـ خالصة لوجهه الـكريم ، ونفع بها النفع العميم ، وغفر لجامعها ، ولمن دَعَا لَهُ بالمغفرة ، ولـكل من اشترك فيها ، أو علّمَ بها ، أو قرأها على المسلمين ، وللمسلمين أجمعين .

اللّهم ارحمنى ، وأساتذتى ، ومُصَحِّحى هذا الكتاب ، وكل من رضى عنه واستحسنه ، وكل من قرأه ، أو علّمه لغيره ، وآرحمْ والدىَّ ، وجميع أولادى وأهلى ، وجميع المسلمين فى الدنيا والآخرة ، وتقبّله منى ، وآجعله خالصاً لوجهك الكريم ، وأدخلنا الجنة من غير سابقة عذاب ، ولا توبيخ ، ولا عتاب ..

اللهم : آرزقنى ، وأكرمنا برؤيتك يا ذا الجلال والإكرام .

اللهم : بارك للسيد الجليل ، الأخ فى الله ،

الذى قام بطبع هذا الكتاب ، وأخرجه إلى حيّز الوجود :

الحاج : رشاد كامل كيلانى صاحب مطبعة الكيلانى ،

مؤسس مشروع (سبيل الله)

حفظه الله ورعاه ...

سيدنا رسولُ الله محمد صلى الله عليه وسلم :

ينبوعُ الشرائع والعلوم ، ومعدنُ أسرار المنطوق والمفهوم ..

وآله وأصحابه : نجومُ الهداية وحماةُ المِلّة .. وخُلفاؤه هم الأئمة الأعلام ، وعلماء شريعته المقرّرون لها على الدوام ..

قال بعض الأفاضل فى مدح أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هُمُ الْقَوْمُ ، مَنْ أَصْفاهُمُ الْوُدَّ مُخْلِصًا
تَمَسَّكَ فِي أُخْراهُ بِالسَّبَبِ الأَقْوَى

هُمُ الْقَوْمُ فاقُوا الْعالَمِينَ مَناقِبًا
مَحاسِنُهُمْ تُحْكَى وَآياتُهُمْ تُرْوَى

مُوالاتُهمْ فَرْضٌ وَحُبُّهُمو هُـدًى
وَطاعَتُهُمْ وُدٌّ وَوُدُّهُمو تَقوَى !..

وقال غيره :

أَرَى حُبَّ آلِ الْبَيْتِ مِنَّا فَرِيضَةً
بِنَصٍّ أَتانا ذِكْرُهُ يَكْشِفُ الْكَرْبا
تَباعُدُنا عَمَّا يُخِـلُّ بِمَجْدِهِمْ
عَلَى رَغْمِ أَهْلِ الْبُعْـدِ قَدْ زادَنا قُرْبا
فَما طَلَبَ الْمُخْتـارُ مِنَّا جَزاءَهُ
مُـكافَئَةً حَسَبًا تُعَـدُّ لَنا عُقْبَى
وَنَرْجُو بِها حُسْنَ الْقِيـامِ بِحَقِّهِ
ـ عَلَى هَدْيِهِ ـ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى

* * *

وبعـدُ : فهذه كلمة فى بعض مناقب سيّد الخلق صلى الله عليه وسلم ، أردنا أن نختم بها الكلمات السابقات التي مرت عليك ، لِنَشْرُفَ بذكر اسمه فى الأولى والآخرة عليه أزكى الصلاة وأتم السلام .

كنت أريد أن أذكر (أجداده) صلى الله عليه وسلم ،
من السيد « عبد المطلب » إلى السيد « عدنان » لنختم به كتابنا هذا ..
وكذلك عن السيدة « آمِنَة بنت وهب بن عبد مناف » ، وما يتعلق بها ..
وعن (صفته) عليه الصلاة والسلام (وأعمامه) الأحد عشر . .
(وأزواجه) من السيدة « خديجة » إلى السيدة « صفية » ..
وغير هؤلاء التسع الذى توفى عنهن ..
وكذا (مَواليه) من « زيد » إلى « أبى سيلة » و « أبى الحمرا » ..
و (خدمه) من « أنس بن مالك » إلى « هند » و « أسماء » ..

ومن هو صاحب نعليه ، إذا قام ألبسه إياها .

و (كُتّابه) من « أبي بكر » إلى « زيد بن ثابت » و « معاوية »

و (رُسُلِهِ) من « عمرو بن أمية » إلى « معاذ بن جبل » . .

و (مُؤَذِّنيه) من « بلال » إلى « سعد القرظ » .

و (سراياه) الست والخمسين . و (غزواته) السبع والعشرين . . .

وكل ما مرّ عليك من سطور سابقة يحتاج إلى تفصيل دينى وتاريخى سنُفرد له كتاباً جديداً ، إن شاء الله ، لو كان فى العمر بقية . .

ومن هذه الخصائص التى سنذكرها فى الكتاب الجديد :

الأضحية ، والوتر ، والضحى ، وقيام الليل ، ومواصلة الصوم ، وأخذ ما خيّر من المغنم قبل القَسْم ، وخمس الخمس من الفَيْء والغنيمة ، وجعل ميراثه صدقة على المسلمين ، وتزويجه من شاء لمن شاء مع عدم الإذن ، ورؤيته من خلفه مثل رؤيته من تلقائه ، وعدم نوم قلبه ، مع نوم عينيه ، ونسخ شريعته شرائع من قبله ، وكونه سيد ولد آدم ، وأول شافع ومشفع ، وقارع لباب الجنة وداخلها ، وأول من تنشقّ عنه الأرض وأكثر الأنبياء تبعاً ، وصلاته بالأنبياء ليلة الإسراء ، وإعجاز كتابه الذى هو القرآن ، وحفظه عن التحريف والتبديل ، وقيامه حُجّة على الناس بعده ، والاحتجاج بسكوته على جواز ما لم يُنكره بعد الرؤية .... إلخ .

أما الآن ، فسنذكر لك معانى روائح الطِّيب ،

حتى تتروّح لها ، بل وطيب الطِّيب ؛

فأعِرْنى قلبك وهواك ، فى حُبّ سيِّد البشر والأملاك !..

* * *

سيدُنا رسول الله محمد صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم : سراج من نور الغيب ، لأنه الرسول الأعظم ، رسول الإسلام ، وخير الأنام ، الموصوف فى القرآن الكريم بقوله تبارك وتعالى :

﴿ .. وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ .

رفع الله قدره .. فلم يخاطبه الله تعالى باسمه ، كما خاطب إخوانه المرسلين فى القرآن الكريم ، بل قال تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ .. ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. ﴾
﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ .. ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ .. ﴾ .

مع أنه تعالى قال : ﴿ يَا نُوحُ .. ﴾ ، ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ .. ﴾ ، ﴿ يَا دَاوُدُ .. ﴾ ، ﴿ يَا مُوسَى .. ﴾ ، ﴿ يَا عِيسَى .. ﴾ .

وقد أقسم الله ـ تبارك وتعالى ـ بحياته صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم ، فقال جلّ شأنه :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

وقد أمر تبارك وتعالى أن يكون النداء له صلى الله عليه وسلم مميزًا عن النداء لغيره ، اقتداء به ـ تبارك وتعالى ـ فى مُناداته ، كما ترى فى مخاطباته السابقة ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ ، كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ .

وأمر سبحانه تبارك وتعالى بالتأدب معه ﷺ فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ، أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

ورحم الله — تبارك وتعالى — من قال :

وَضَمَّ الْإِلَٰهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ
إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ : أَشْهَدُ

وَشَقَّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ
فَذُو الْعَرْشِ : مَحْمُودٌ ، وهٰذا : مُحَمَّد

* * *

وقد طلع بدرُ ذلك الرفيع القدر من بلاد العرب ، من أعظمهم نسبًا ، كما أشار إلى ذلك « البوصيرى » رضى الله عنه فى همزيته :

وَبَدَا لِلْوُجُودِ مِنْكَ كَرِيمٌ
مِنْ كَرِيمٍ ، آبَاؤُهُ كُرَمَاءُ

نَسَبٌ تَحْسِبُ الْعُلَا بِحُلَاهُ
قَلَّدَتْهَا نُجُومَهَا الْجَوْزَاءُ

حَبَّذَا عِقْدُ سُؤْدَدٍ وَفَخَارٍ
أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ الْعَصْمَاءُ

ولنتدبر قوله تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى .
فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ .

ولذا جهل وصفه الذى يحدده ويحيط به أىُّ واصف يريد أن يكشف عن حقيقته ، فهو صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم على حدّ قول « ابن الفارض » ، رضى الله عنه :

وَعَلَى تَفَنُّنِ واصِفِيهِ بِحُسْنِهِ
يَفْنَى الزَّمانُ ، وَفِيهِ ما لَمْ يُوصَفِ !

ورضى الله تبارك وتعالى عن « البوصيرى » ،
إذ قال فى الميميَّة المشهورة بالبُرْدة :

دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارَى فِي نَبِيِّهِمِ
وَاحْكُمْ بِما شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِمِ
وَانسُبْ إِلَى ذاتِهِ ما شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ
وَانْسُبْ إِلَى قَدْرِهِ ما شِئْتَ مِنْ عِظَمِ
فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ ، لَيْسَ لَهُ
حَدٌّ ، فَيُعْرِبَ عَنْهُ ناطِقٌ بِفَمِ !

إلى أن قال :

أَعْيَا الْوَرَى فَهْمُ مَعْناهُ ، فَلَيْسَ يُرَى
لِلْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَحِمِ
فَالشَّمْسُ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ
صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ

أى أن كل من حاول الاستقصاء عن حقيقة قدره ، وما أُودع من السرّ فيه صلى الله عليه وسلم ، فلابد وأن يعترف بالعيّ والعجز عن حقيقته ـ ومرتبته فوق ما تتصوره العقول ـ مفوّضا علم ذلك إلى الواحد القدير .

قال النبي صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« وَاللهِ ما عَرَفَنِي ، غَيْرُ رَبِّي !.. »

أنوارُ النبوة من نوره ، إذ هو صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم أبو الأضواء ، والسُّرُج المشرقة هم الأنبياء : أنوارهم من نوره ؛ فهو الهادى بشريعته الحاوِيَة لكل ما فى الشرائع السابقة المنسوخَة بِشَرْعه ، حتى أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ـ بنص آية الميثاق ـ كانوا نُوّابَهُ فى تبليغ شرائعهم لأممهم فى عالم الأجسام .

قال صاحب الهمزية :

أَنْتَ مِصْباحُ كُلِّ فَضْلٍ فَما تَصْـ
ـدُرُ إِلَّا عَنْ ضَوْئِكَ الْأَضْـواءُ

* * *

ومن يُخيفنا أن نقول : إنه أقدم من القِدَم ، أعنى أنه صلى الله عليه وسلم كان قبل الأمم ، يؤيد ذلك الحديث الشريف ، عن ميسرة الفجر ، قال : قلت يا رسول الله : متى كنت نبيًّا ؟

قالَ ﷺ : « وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ والْجَسَدِ . »

(رواه الإمام أحمـــد ، والبخارى فى التاريخ ، والطبرانى ، والحاكم وصححه . وقال الحافظ : سنده قوى) .

قلت : ورواه أبو الحسن بن بشران ..

ومن طريقه : ابن الجوزى فى كتاب : « الوفا بفضائل المصطفى »

بلفظ : قلت يا رسول الله : متى كنت نبياً ؟

قال صلى الله عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ ، واسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ

سَبْعَ سَماواتٍ ، وَخَلَقَ الْعَرْشَ ، كَتَبَ عَلَى ساقِ الْعَرْشِ :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، خاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ .

خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ الَّتِي أَسْكَنَها « آدَمَ » و « حَوَّاءَ » ،

فَكَتَبَ اسْمِي عَلَى الْأَبْوابِ والْأَوْراقِ والْقِبابِ والْخِيامِ ؛

وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ والْجَسَدِ ..

فَلَمَّا أَحْياهُ اللهُ تَعالَى ، نَظَرَ إِلَى الْعَرْشِ ،

فَرَأَى اسْمِي ، وَأَخْبَرَهُ اللهُ أَنَّهُ : سَيِّدُ وَلَدِكَ ..

فَلَمَّا غَرَّهُما الشَّيْطَانُ ، تابا ، وَاسْتَشْفَعا بِاسْمِي إِلَيْهِ . »

وإسناد هذه الرواية قوى أيضاً .

روى عبد الرازق عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله

عنه ، قال : قلت يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى .

أخبرنى عن أول شىء خلقه الله تعالى قبل الأشياء .

قال صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم :

« يا جابِرُ : إِنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ ـ قَبْلَ الْأَشْياءِ ـ

نُورَ نَبِيِّكَ مِنْ نُورِهِ .. فَجَعَلَ ذٰلِكَ النُّورُ يَدُورُ بِالْقُدْرَةِ ،

حَيْثُ شاءَ اللهُ تعالَى ، وَلَمْ يَكُنْ - فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ - لَوْحٌ وَلا قَلَمٌ ، ولا جَنَّةٌ ولا نارٌ ، ولا مُلْكٌ ولا سَماءٌ ولا أَرْضٌ ، ولا شَمْسٌ ولا قَمَرٌ ، ولا جِنٌّ ولا إِنْسٌ .

فَلَمَّا أرادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ ، قَسَّمَ ذٰلِكَ النُّورَ ، أَرْبَعَةَ أَجْزاءٍ : فَخَلَقَ مِنَ الْجُزْءِ الأَوَّلِ : حَمَلَةَ الْعَرْشِ ، وَمِنَ الثَّانِي : الْكُرْسِيَّ ، وَمِنَ الثَّالِثِ : باقِي الْمَلائِكَةِ .

ثُمَّ قَسَّمَ الْجُزْءَ الرَّابِعَ أَرْبَعَةَ أَجْزاءٍ ،

فَخَلَقَ مِنَ الأَوَّلِ : نُورَ أَبْصارِ الْمُؤْمِنِينَ ،

وَمِنَ الثَّانِي : نُورَ قُلُوبِهِمْ وَهِيَ الْمَعْرِفَةُ بِاللهِ ،

وَمِنَ الثَّالِثِ : نُورَ أُنْسِهِمْ . »

هذا ولعل الجزء الرابع من هذا التقسيم الأخير ، هو الذى كان يتلألأ فى وجوه آبائه صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، حتى انتقل إلى أبيه « عبد الله » .

وقد رأته « فاطمة » الخثعمية التى طلبت منه الوقاع ، فقال :

أَمَّا الْحَرامُ ، فَالْمَماتُ دُونَهُ وَالْحِلُّ لا حِلَّ فَأَسْتَبِينُهُ

فَكَيْفَ بِالأَمْرِ الَّذِي تَبْغِينَهُ يَحْمِي الْكَرِيمُ عِرْضَهُ ودِينَهُ

والخلاصة أن حُسنه صلى الله عليه وسلم مُمتنع عن شريك فيه ، فهو كقول « البوصيرى » رضى الله عنه فيه صلى الله عليه وسلم :

مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحاسِنِهِ

فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

ويقول فى موضع آخر عنه صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم :

كَفاكَ بِالْعِلْمِ فِي الأُمِّىِّ مُعْجِزَةً
فِى الْجاهِلِيَّـةِ والتَّأْدِيبِ فِي الْيُتْمِ

فالحقُّ سبحانه وتعالى أنطقه بالحق ، وهو القرآن الكريم :

آياتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَٰنِ : مُحْدَثَةٌ
قَدِيمَةٌ ، صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقِدَمِ

* * *

فالرسول عليه الصلاة والسلام ،

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

والقرآن كلام الله القديم المعجز عن الإتيان بمثله .

فيا ألله ، بجاه حبيبك وصفيِّك ومُصطفاك رسولك الكريم :

محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه — وآله وصحبه — وسلم ،

كما أكرمتنا ومننت علينا بالسعادة الكبرى ، والنعيم الذى لا يفنى ، إذ جعلتنا من أمته عليه الصلاة والسلام ، كذلك نتضرع إليك ونضرع : أن تُديم بالبقاء والحفظ بيتك الحرام والكعبة المشرفة ، التى فى شرع استقبالها توحيد اتجاه المسلمين ، وقيام وحدتهم ؛ حيث يكونون أقوياء بين العالمين . قال الله تبارك وتعالى :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ .

اللهم احفظ البيت الحرام ، والمسجد الذى به سيِّد الأنام ، بما حفظت به الذِّكر الحكيم وسائر بلاد المسلمين من كيد الكائدين ، أعدائك أعداء الدين ، من المغضوب عليهم والضالين .

اللهم : آمين . آمين .

طبع على نفقة الحامد تبارك وتعالى

عبده لحضرة النبي المصطفى :

سيدنا : مُحَمَّد

عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم

داعين المولى عزت وجلت قدرته :

أن تؤتي سيدنا محمدًا

الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ،

وأن تبعثه - اللهم - مقامًا محمودًا الذي وعدته ،

الذي إذا سأل أعطيته ، وإذا طلب أجبته ..

إنك سبحانك لا تخلف الميعاد

* * *

غفر الله لنا ، ولوالدينا ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات

والصلاة والسلام على سيدنا : محمد

خاتم الأنبياء والمرسلين

مطبعة الكيلاني

[illegible]

[illegible]

ت ٩١٨٥٩٨